

جمهورية مصر العربية
سلسلة
دراسات فى الاسلام

الهجرة
انطلاقة وبناء

للأستاذ أحمد عبد الرحيم السايح

يشرف على إصدارها
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

العدد ٢١٤
السنة الثامنة عشر
١٥ من المحرم سنة ١٣٩٩ هـ
١٥ من ديسمبر سنة ١٩٧٨ م


الله
جل جلاله

مقدمة

من حكمة الله تبارك وتعالى . . أنه لم يترك الإنسانية دون تعهد ورعاية . . ولهذا أرسل الرسل حتى تظل الإنسانية على اتصال بالله . . فلا تنقلب إلى حيوانات تبطش ، وتأكل بعضها . . وشاء الله أن تكون رسالة الإسلام خاتمة الرسالات . . ولهذا السبب كانت أتم وأكمل فى كل ما جاءت به . . وليس هذا الكلام دعوى ينقصها البرهان ، أو يعوزها الدليل . . فهناك مسيرة دعوة الإسلام نفسها أكبر شاهد لمن كان له قلب وعقل يتدبر دون تأثير أعمى . .

ولا يخالفنى أحد . . فى أن الإنسانية أحوج ما تكون إلى السلام . . السلام الحقيقى النابع من الإسلام لا السلام الذى يهتف به الكثير . . حتى وصل الأمر . . إلى عمل جماعات تتغنى بالسلام لتحيك فى ظل هذا الشعار انقلابات قد تكون دموية . . وقد تكون فكرية . .

ولا يخفى هذا على ذوى العقول . . وقد جربت الإنسانية فى تاريخها الطويل الممتد فى الزمن . . جربت كثيرا من الأنظمة الوضعية وغيرها . . فلم تجد ما يصل بها إلى شاطىء النجاة والأمان . . وقد وجدت ذلك مرة واحدة فى الزمان كله . . ولازال هذا الوجود صالحاً

إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . وجدت السلام الحقيقى فى دين الإسلام . . وفى مسيرة المسلمين عبر التاريخ وتطور الزمن . . .

ومن يطالع تاريخ الدعوة الإسلامية وغزوات الرسول الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه ، والمعارك الإسلامية . . حتى أشد المعارك الحاسمة . . يجد أن السلام يرفرف عليها . . فكل ما فيها يدل على إنسانية المسلمين . . وعلى أن لهم قلوبا عمرت بالإيمان بالله . .

ونحن أحوج إلى دراسة التاريخ الإسلامى وما فيه من معارك . . لنرى ونتأمل وفى هذه الرؤية . . ما يزيد المسلمين والمفكرين إيمانا بالحاجة إلى الإسلام . . ليكون دستورا للإنسانية . . يحفظها من التكالب المسعور ، والمادية الدموية التى لا ترحم . . ولعل الإنسانية تجرب سلام الإسلام ولو مرة فى هذا الزمان الذى تراق فيه الدماء فى كل ركن من أركان الدنيا . لتعيش الإنسانية فى أمن ورخاء .

المؤلف

السلام والإنسانية

الإسلام دين السلام . . يدعو للسلام . . ويشيع فى العالم مبادىء السلام ويغمر المسلمين بأسباب السلام . .

وعلى هذا الأساس . . سار رسول الله عليه الصلاة والسلام وصحابته طيلة ثلاثة عشر عاما بمكة . . تحملوا فيها من ألوان العذاب ما تحملوا . .

قال الله تعالى : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين »[1] .

فالمجرمون كانوا يضحكون من المؤمنين سخرية واستهزاء بهم . . وإذا مر بهم المؤمنون ، يتغامزون عليهم بأعينهم ، ويشيرون استهزاء وتهكما بهم . . وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم ، رجعوا يتفكهون بذكر المؤمنين مستخفين بما هم فيه ، وإذا رأى المشركون أصحاب رسول الله ، نسبوهم إلى الضلال ، ومجانبة الطريق السوى ، لأنهم

(١) سورة المطففين : ٢٩ – ٣٣ .

على غير دينهم ، مع أنهم لم يوكلوا بحفظ أعمالهم ، حتى يرسلوا ليحصوا على المؤمنين ما يصدر منهم[1] ؟ . .

وقال تعالى : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين » [2] .

تعزية للرسول فيمن كذبه من قومه . . وأمر له بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ، ووعد له بالنصر كما نصروا . . وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعدما نالهم من التكذيب من قومهم ، والأذى البليغ ، ثم جاءهم النصر فى الدنيا ، كما لهم النصر فى الآخرة [3]

وقال تعالى : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل »[4] .

ولما أسلم نفر من أهل مكة ، واتبعوا رسول الله ﷺ وَثَبَتْ كل قبيلة على من فيها من المسلمين . . فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب ، والجوع ، والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر . . وكان بلال بن رباح ، صادق الإسلام ، طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة الثقيلة ، فتوضع على صدره . ثم يقول له : لا تزال

---

(١) مقرر التفسير ص ٢٩ . وزارة المعارف .

(٢) سورة الانعام : ٣٣ ، ٣٤

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير . الجزء الأول ص ١٣٠ .

(٤) سورة الاحقاف آية ٣٥ .

هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . . فيقول : وهو فى ذلك البلاء . . أحد أحد[1] . .

ومن هؤلاء عمار بن ياسر ، وهو من السابقين الأولين فى الإسلام وكان مولى لبنى مخزوم أسلم هو وأبوه وأمه . . فكان المشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء ، فيعذبونهم بحرها ، ومر بهم النبى عليه الصلاة والسلام وهم يعذبون فقال : صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة . .

فمات ياسر فى العذاب ، وأغلظت امرأته « سمية » القول لأبى جهل . فطعنها فى قلبها بحربة . فى يديه . . فماتت . . وهى أول شهيدة فى الإسلام . .

وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر المحمى على صدره مرة ، وبالتغريق أخرى . .

وقالوا : لا نتركك حتى تسب محمدا ﷺ ، أو تقول فى اللات والعزى خيرا . . ففعل . . فتركوه . .

فأتى النبى ﷺ يبكى . فقال : ما وراءك ؟

قال : شر يا رسول الله . كان الأمر كذا وكذا . .

قال : فكيف تجد قلبك . .

قال : أجده مطمئنا بالإيمان . .

قال : يا عمار إن عادوا فعد . .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام . الجزء الأول ٢٠٩ .

فأنزل الله تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » [1] .

ولما اشتدت ضراوة قريش بالمستضعفين ذهب خباب بن الأرت إلى رسول الله ﷺ ، يستنجد به . .

قال خباب : شكونا إلى رسول الله ﷺ ، وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة . .

فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟

فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ، ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » [2] .

وعن عائشة رضى الله عنها . . قالت : لما ضاقت مكة على أبى بكر ، وأصابه فيها من الأذى ، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى . .

استأذن رسول الله فى الهجرة فأذن له . . فخرج أبو بكر مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين ، لقيه ابن الدغنة وهو يومئذ سيد

---

(١) فقة السيرة لفضيلة الشيخ محمد الغزالى . طبع دار الكتب الحديثة ص ١٠٨ القاهرة .

(٢) فقه السيرة ص ١٠٩ .

الأحابيش . . وهى قبائل تحالفت بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة . .

فقال ابن الدغنة : أين يا أبا بكر !

قال : أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا على . .

قال : ولم ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم . . ارجع فأنت فى جوارى . . فرجع معه . . حتى إذا دخل مكة . . قام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش إنى قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرض له أحد إلا بخير . . فكفوا عنه . .

قالت عائشة : وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فى بنى جمح ، فكان يصلى فيه ، وكان رجلا رقيقا ، إذا قرأ القرآن استبكى . .

قالت : فيقف عليه الصبيان ، والعبيد ، والنساء ، يعجبون لما يرون من هيئته . .

قالت : فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة . فقالوا له : يا بن الدغنة : إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا . . إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى . . وكانت له هيئة ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم . . فأته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء . .

فمشى ابن الدغنة إليه . . فقال له : يا أبا بكر ، إنى لم أجرك

لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت . .

قال أبو بكر : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ .

قال ابن الدغنة : فاردد على جوارى . .

قال : قد رددته عليك .

فقام ابن الدغنة ، فقال : يا معشر قريش : إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم [1] .

ولما رأى رسول الله ﷺ ، ما يصيب أصحابه من البلاء وعدم قدرته على منع الإيذاء عنهم . . قال ﷺ لأصحابه : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه . . فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مَخافة الفتنة ، وفرارا إلى الله بدينهم [2] . .

وكان أهل هذه الهجرة اثنى عشر رجلا وأربع نسوة[3] .

وقد اشتد الإيذاء ، والبلاء من قريش على من قدم من مهاجرى الحبشة وغيرهم (ممن كان بمكة) وسطت بهم العشائر ، ولقوا منهم أذى شديدا . .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام . الجزء الأول ص ٢٤٩ .

(٢) سيرة النبى لابن هشام . الجز الأول ص ٢١٣ .

(٣) زاد المعاد لابن القيم . الجزء الثانى ص ٤٤ .

فأذن لهم الرسول فى الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية . فكان خروجهم الثانى أشق عليهم وأصعب . . ولقوا من قريش تعنيفا شديدا ، ونالوهم بالأذى ، وصعب عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حسن جواره لهم ، وكان عدد من خرج فى هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا وتسع عشرة امرأة (1) ؟ !

ولم يسلم الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام من إيذاء المشركين يقول ابن اسحاق : ولما هلك أبو طالب ، نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تناله منه فى حياة عمه أبى طالب . . فخرج رسول الله ، ومعه زيد بن حارثة إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة منهم من قومه . . ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، لأنهم كانوا أخواله . .

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف ، عمد إلى نفر من ثقيف . وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم . . وهم أخوة ثلاثة عبد ياليل بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، وحبيب بن عمرو . . فجلس إليهم الرسول وكلمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه . .

فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك .

وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك !

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من الله .

(1) زاد المعاد لابن القيم ج٢ ص ٤٤ . والطبقات الكبرى لابن سعد الجزء الأول ص ٢٠٧ .

لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام . . ولئن كنت تكذب على الله لا ينبغى أن أكلمك . .

فقام رسول الله من عندهم ، وقد يئس من خير ثقيف . .

وقد قال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى ، فلم يفعلوا ، بل أمروا به سفهاءهم ، وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس . فجعلوا يرمونه بالحجارة ، حتى أن رجلى رسول الله ﷺ لتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى لقد شج فى رأسه شجاجا .

وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة . . فعمد إلى ظل شجرة من عنب فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ ، قال : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى . إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والأخرة ، من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » [1] .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام . الجزء الثانى ٢٨٥ .

وقد حرص الرسول ﷺ على تبليغ دعوة الإسلام حرصا شديدا فلم يترك أحدا يصل إليه بنفسه أو بكتاب إلا ودعاه . فعن ربيعة بن عباد قال : رأيت رسول الله ، ﷺ فى الجاهلية ، فى سوق ذى المجاز . . وهو يقول : «يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، والناس مجتمعون عليه» (١) .

وذهب رسول الله ﷺ إلى كندة فقال لهم :

فهل لكم إلى خير؟

قالوا : وما هو؟

قال : «تشهدون أن لا إله إلا الله ، وتقيمون الصلاة ، وتؤمنون بما جاء من عند الله» (٢) .

وكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره . . كلما اجتمع الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله ، وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه ، وما جاء به من الهدى ، والرحمة ، ولا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا وتصدى له ، ودعاه إلى الله تعالى ، وعرض عليه ما عنده (٣) . .

وهكذا بلغ رسول الله ﷺ دعوة الإسلام إلى عشيرته وأقاربه ، وإلى القبائل المجاورة . . حتى إذا تم له تبليغ الرسالة الى كل من

---

(١) السيرة النبوية للإمام ابن كثير . الجزء الأول ص ٤٦٢ .

(٢) السيرة النبوية للإمام ابن كثير . الجزء الثانى ص ١٥٩ .

(٣) السيرة النبوية للإمام ابن كثير . الجزء الثانى ص ١٧٣ .

حوله . . بدأ يدعو الأمم المجاورة له [1] . .

والرسول الأمين محمد عليه الصلاة والسلام لم يتخذ لدعوة الإسلام طريق الإكراه والإجبار . . إنما سلك سبيل الإقناع وترك الإختيار للناس . . فمن شاء آمن وانقاد ، ومن شاء اتخذ سبيلا آخر ، وتحمل مصير ما اتجه إليه . .

قال تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » [2] .

وقال تعالى فى قضية السلام العالمى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » [3] . .

وإن جنحوا ومالوا للمسالمة ، والمصالحة والمهادنة ، فاجنح لها فمل إليها واقبل منهم ذلك . . ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ ، تسع سنين أجابهم إلى ذلك ، مع ما اشترطوا من الشروط الأخر [4] . !

وقال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » [5] .

---

(١) السيرة النبوية للإمام ابن كثير . الجزء الثالث ص ٥٠٨ .
(٢) سورة الكهف آية ٢٩ .
(٣) سورة الأنفال أية ٦١ .
(٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٢٢ .
(٥) سورة الممتحنة آية ٨ .

فالذين لم تسبق منهم مقاتلة المسلمين لعداء فى الدين ، ولم يكرهوا المسلمين على الهجرة ، والخروج من ديارهم . .

هؤلاء ليس من بأس فى برهم والعدل فيهم بالإحسان والصلة .

ورب العزة جل جلاله ، يعاتب المؤمنين حرصا على قضية السلام قال تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا . . » [1] .

نزلت هذه فى شأن مرداس بن نهيك ، من أهل فدك ، وكان قد أسلم ، ولم يسلم من قومه غيره . .

فغزتهم سرية لرسول الله ﷺ . . عليهم : غالب بن فضالة الليثى . .

فهربوا ، وبقى مرداس لثقته بإسلامه . . فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد . .

فلما تلاحقوا وكبروا . . كبر . وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله . السلام عليكم . .

فقتله أسامة بن زيد ، واستاق غنمه ، فأخبروا رسول الله ﷺ . فوجد وجدا شديدا . .

وقال : « قتلتموه إرادة ما معه » . .

فقال : أسامة : إنه قال بلسانه دون قلبه . .

---

(١) سورة النساء آية ٩٤ .

وفى رواية ، إنما قالها خوفا من السلاح . .

فقال عليه الصلاة والسلام : « هلا شققت عن قلبه » .

ثم قرأ الآية على أسامة .

فقال : يا رسول الله ، استغفر لى . .

فقال : « كيف بلاإله إلا الله » .

قال أسامة : فمازال عليه الصلاة والسلام يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ . ثم استغفر لى ، وقال : اعتق رقبة [1] .

وروى ابن عباس فى سبب نزول الآية ، أن رسول الله ﷺ بعث سرية فيها المقداد بن الأسود . . فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا . . وبقى رجل له مال كثير لم يبرح . . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله . وأهوى إليه المقداد فقتله . فلما أخبر النبى ﷺ . طلب المقداد ، وقال له : « يا مقداد أقتلت رجلا يقول : لا إله إلا الله ؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غدا » [2] .

وكتب رسول الله ﷺ . . إلى عمرو بن حزم كتابا أوصاه فيه بتقوى الله فى أمره كله . . فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله . . وأن يخبر الناس بالذى لهم والذى عليهم . ويلين للناس فى الحق . ويشتد عليهم فى الظلم . . فإن الله كره الظلم ونهى عنه . فقال : « ألا لعنة الله على الظالمين » .

---

(١) تفسير أبى السعود . الجزء الأول ص ٣٧٣ .

(٢) تفسير أبن كثير الجزء الأول ص ٥٣٩ .

وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاما خالصا من نفسه ، ودان بدين الإسلام ، فإنه من المؤمنين له مثل مالهم ، وعليه مثل ما عليهم . . ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها . . [1] .

وقالت أسماء بنت أبى بكر ، رضى الله عنهما ،قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا . فأتيت النبى ﷺ . فقلت : يا رسول الله ، إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها . قال : نعم صلى أمك . . [2] .

وقال رسول الله ﷺ : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاما [3] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من آذى ذميا فأنا خصمه . ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » [4] .

والرسول عليه الصلاة والسلام ، قد سن فى ذلك قوانين السماح والتجاوز التى لم تعهد فى عالم مليء بالتعصب والتغالى . والذى يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر . . وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا فى العالم بالبقاء والتسلط ، هو رجل مخطىء بل متحامل جرىء . .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام الجزء الرابع ص ١١٥ .

(٢) تفسير القرطبى الجزء الثامن عشر ص ٥٩ . والحديث رواه مسلم والبخارى .

(٣) التاج الجامع للأصول ج ٢ ص ٣٠٩ . والحديث رواه أحمد ومسلم والبخارى .

(٤) التاج الجامع للأصول . ج ٢ ص ٢٦٩ . والحديث رواه الخطيب البغدادى عن ابن مسعود . .

وعندما جاء النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، وجد بها يهودا توطنوا . ومشركين مستقرين . .

فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام بل قبل عن طيب خاطر . . وجود اليهودية والوثنية . وعرض على الفريقين أن يعاهدهم ، معاهدة الند للند ، على أن لهم دينهم وله دينه . .

ونحن نقتطف فقرات من نصوص المعاهدة التى أبرمها مع اليهود ، دليلا على اتجاه الإسلام فى هذا الشأن . .

جاء فى هذه المعاهدة :

أن المسلمين من قريش ، ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، أمة واحدة : وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى وقيعة ظلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا . ولو كان ولد أحدهم . .

وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن . .

وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر . أن ينصر محدثا ، ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل . .

وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . .

وأن يهود بنى عوف ، أمة من المؤمنين .

ليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم .

وأن ليهود بنى النجار والحارث ، وساعدة وبنى جشم وبنى الأوس . . إلى آخره مثل ما ليهود بنى عوف . .

وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

وأن بينهم النصح والنصيحة والبر ، دون الإثم .

وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . .

وأن الله على أتقى ما فى الصحيفة وأبره .

وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

وأن من خرج من المدينة آمن ، ومن قعد بها آمن ، إلا من ظلم وأثم .

وأن الله جار لمن بر واتقى . .

وهذه الوثيقة تنطق برغبة المسلمين فى التعاون الخالص مع يهود المدينة . . لنشر السكينة فى ربوعها ، والضرب على أيدى العادين ، ومدبرى الفتن ، أيا كان دينهم . .

وقد نصت بوضوح على أن حرية الدين مكفولة . .

فليس هناك أدنى تفكير فى محاربة طائفة أو إكراه مستضعف بل تكاتفت العبارات فى هذه المعاهدة على نصرة المظلوم ، وحماية الجار ،

ورعاية الحقوق الخاصة والعامة . واستنزل تأييد الله على أبر ما فيها وأتقاه . . كما استنزل غضبه على من يخون ويغش . .

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو . وقررت حماية الخروج من المدينة لمن يبتغى تركها ، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها . . [1] .

ولقد كان وما يزال هدفا عاما للإسلام . . أن ينقل الناس من ضلال الشرك والإلحاد ، وعبادة العباد ، والأصنام ، والأوثان ، إلى عبادة الله وحده . .

وكان حرص الإسلام ورسوله . . على هداية الناس أكثر من حرصه على تحقيق نصر حربى ، تنقل فيه الغنائم والأسلاب . فكان من هدى رسول الله ﷺ ، كلما بعث بعثا أو أرسل سرية أن يوضح لهم الهدف ، ويبين لهم الخطوات . . جاء فى وصاياه لهم : « تألفوا الناس ، وتأنوا بهم ، ولا تغيروا عليهم ، حتى تدعوهم . فما على الأرض ، من أهل بيت من مدر ولا وبر ، إلا أن تأتونى بهم مسلمين أحبّ إلىّ من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم » [2] . .

فهذا الحديث الشريف على ما فيه من إيجاز إنما يوضح هدف الإسلام من الحرب والقتال والفتح باسم الله . .

فالتألف والتآخى ، والكف عن الحرب ، حتى تصل الدعوة إلى

---

(١) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص ١٩٥ - ١٩٧ .

(٢) شرح السير الكبير . محمد بن أحمد بن سهل . الجزء الأول ص ٥٩ .

كل سامع . . كل ذلك احتياط يكفل للناس الأمن والطمأنينة . . حتى يستمعوا إلى كلمة الحق كلمة الله . . لا فرق فى ذلك بين أهل مدر أو وبر . .

وغاية الغايات من التحركات الإسلامية ، وجيوش الفتح أن يأتى الناس مسلمين دون حرب أو قتال [1] . .

وهذا عهد رسول الله ﷺ لأهل نجران ، وقد كانوا نصارى :
« ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله . على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعتهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، ولا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته .

وليس عليهم دية ولا دم جاهلية . ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » [2] .

ولما حاصر أبو عبيدة بن الجراح أمير الجيوش الإسلامية بيت المقدس بالشام طلب أهلها الصلح واشترطوا أن يكون المتولى لعقد الصلح عمر بن الخطاب . .

فكتب إليه أبو عبيدة بذلك . . فسار عمر إليهم وأعطاهم هذا الأمان . ونصه . .

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين

---

(١) مجلة كلية اللغة العربية بالرياض الجزء الثالث ص ٤٨ الدكتور على عبد الحليم محمود .
(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ محمد حميد الله الحيدرى . .

أهل إيلياء من الأمان . .

أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها ، وبريئها ، وسائر ملتها . .

انه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم . . ولا ينتقص منها ولا من حيزها . . ولا من صلبهم ، ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . .

ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن . . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . .

فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه ، وماله ، حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن . . وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم ، وعلى بيعهم ، وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم . .

ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على إيلياء من الجزية . .

ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى تحصد حصادهم . .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » .

وختم عمر رضى الله عنه كتاب الصلح هذا بتوقيعه ، وأشهد عليه خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن سفيان . . [1] .

ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يهوديا تبدو عليه آثار الحزن والكآبة . .

فسأله عن سبب ذلك . .

فقال : الفقر يا أمير المؤمنين . .

فرق له عمر ، وشعر بعظيم حقه عليه ، والتفت إلى أصحابه . . وقال : ما أنصفتموه . تأخذون منه الجزية فى أيام شبابه وقوته ، وتضيعونه فى أيام عجزه وشيخوخته ، اجعلوا له نصيبا فى بيت مال المسلمين . .

فجعلوا له نصيبا يقتات منه إلى أن مات . .

فهل بعد هذا سمو وجمال ، وروعة وجلال ؟

وهل خطر على عقول البشرية فى أرقى عهودها . مثل هذه المعاملة الباهرة ؟ .

وهل ظفر المخالفون من السعادة بمثل ما ظفر به المقيمون فى ظلال الإسلام ؟

---

(1) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبرى الجزء الثالث ص ٦٠٩ .

« إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » [1] .

هذا هو قيمة العهد فى نظر الإسلام ، فأين منه ما يصدر الآن من الدول الغاشمة التى تعاهد أمما مغلوبة على أمرها لمآرب آثمة ، ورغبات فاجرة ، فإذا قضت وطرها تنكرت لها ، وماطلت فى حقوقها ، وعبثت بمصالحها ، وأموالها ، وأرواحها ، ونفضت من العهد يدها . .

فإذا ذكرت به وقفت على ربوة الإستهتار ، وقالت فى لهجة الماجن الفاجر : المعاهدات قصاصات ورق يتمسك بها الضعفاء . .

ومن عجيب أمر هذه الدول العاتية ، أنها قد تحرص على بقاء معاهدة جائرة . . تعلم أنها وقعت من الدولة الضعيفة تحت تأثير الضعف والإرهاب . .

وتكون هى من جانبها قد أسرفت فى الغدر بها ، وأمعنت فى انتهاك حرمتها . ولكنها تسعى جاهدة لبقاء شبحها ، حيث تبغى من ورائها احتلالا مستورا ، واستعمارا مقنعا [2] . .

أما فى الإسلام . . فإن العدل فى العلاقات الإنسانية قاعدة عامة سواء بين المسلمين . . أو بينهم وبين غيرهم . . حتى فى حالات العداوة « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » . .

---

(١) سورة ق آية رقم ٣٧ .

(٢) مجلة كلية اللغة العربية الرياض ج.٣ ص ٦١ ، ٦٢ .

فلا يجوز أن تكون العداوة حائلة دون العدل ، بل هو واجب على كل حال . .

فالعلاقة مع غير المسلمين إذا لم يكونوا محاربين فى الدين والأرض هى ليست علاقة عدالة فحسب . بل علاقة بر حسب التعبير القرآنى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» . لقد اشترط الإسلام فى هذه الآية شرطين أو ثلاثة ، لحسن العلاقة بين المسلمين أو بين المجتمع الإسلامى وغير المسلمين ، والمجتمعات الأخرى ، وإقامتها على أساس القسط والبر وهو درجة أعلى ، وعلاقة أوثق من علاقة العدل . .

وهذه الشروط هى :

عدم محاولتهم إخراج المسلمين عن دينهم .

أو إخراجهم من أرضهم .

أو مساعدة من يخرجهم من أرضهم .

وهكذا فإن الإسلام وضع الأسس الإعتقادية ، والأخلاقية ، والحقوقية ، لإقامة الصلات السلمية ، والتعاونية بين شعوب العالم أجمع . .

فتح أبوابه أولا – لمن يريد أن يدخل فى الإطار الإسلامى ، ويقبل مبادىء الإسلام ، عقيدة ونظاما . . فيكون مرتبطا بالإسلام ارتباطا كاملا ، ويكون جزءا مشاركا فى المجتمع الإنسانى الأفضل الذى لا يعرف إلا أخوة الإنسانية والعبودية لله ، وتنفيذ تعاليمه الصالحة التى بلغها خاتم الرسل بالرسالة الخاتمة الناسخة .

وأما من بقى خارج هذا الإطار الإسلامى من شعوب العالم فقد أقام معهم علاقات سلمية وإنسانية على أساس من العدل ، وحفظ الكرامة الإنسانية [١] .

والعدل فى الإسلام واجب بالنسبة للمسلمين بعضهم مع بعض ، وبالنسبة لغير المسلمين . . إذا كانوا من رعايا الدولة الإسلامية .

قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » [٢] .

فالأمر بالعدل مطلق غير مخصص بأحد .

وقال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » [٣] .

وكلمة الناس فى الحكم بالعدل ، تعم المسلمين وغير المسلمين .

ويدل على ذلك قصة القبطى الذى سابق ابن عمرو بن العاص فسبقه . . وذلك أن قبطيا من أهل مصر قد تسابق مع ولد عمرو بن

---

(١) استراتيجة العالم الإسلامى ص ١٠٢ ، ١٠٣ مكة المكرمة .
(٢) سورة النحل آية رقم ٩٠ .
(٣) سورة النساء آية رقم ٥٨ .

العاص بفرسيهما فسبقه المصرى . فشق ذلك على ابن عمرو بن العاص . . فجعل يضربه بالدرة ويقول له خذها وأنا ابن الأكرمين . .

فذهب الرجل وشكا ذلك لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فأرسل يستقدم عمرو بن العاص وولده . .

فلما قدما عليه أعطى الدرة للمصرى ، وقال له : دونك الدرة . فاضرب بها ابن الأكرمين . .

ثم قال له : أجلها على صلعة عمرو . . فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه . .

ثم قال لعمرو . . متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا [1] .

وقال الزهرى : قضت السنة أن يرد أهل الكتاب فى حقوقهم ومواريثهم إلى أهل دينهم . . إلا أن يأتوا راغبين فى حكم الله فيحكم بينهم بكتاب الله .

قال السمرقندى : وهذا القول يوافق قول أبى حنيفة : أنه لايحكم بينهم ما لم يتراضوا بحكمنا [2] .

وبجانب هذا العدل الشامل . . أباح الإسلام للمسلمين أن يأكلوا جميع الأطعمة ، وأن يشربوا جميع المشروبات غير المحرمة ، الواردة إلى المسلمين ، من أية جهة ، ومن أية أمة ، ولم يستثن من ذلك إلا

(١) أخبار عمر للشيخ على الطنطاوى ص ١٨٣ .
(٢) أحكام القرآن للقرطبى ج ٦ ص ١٨٥ .

أطعمة الحيوانات ، لأنها لا تحل إلا بذبحها ، بطريقة خاصة ، وبذكر اسم الله عليها ، فأباح للمسلمين ذبائح أهل الكتاب ، وحرم عليهم ذبائح غيرهم لعدم توفر شروط الذبح عندهم . .

قال تعالى : « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » (١) .

ومن تسامح الإسلام وانسانيته . . أنه أباح للمسلمين عيادة المرضى الذميين من أهل الكتاب . . والقربة فيها موقوفة على ما تقترن به من جوار ، أو قرابة ، ونحوهما . .

وجاء فى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ ، فمرض . . فأتاه النبى ﷺ يعوده . فقعد عند رأسه ، فقال له : « أسلم » فنظر إلى أبيه وهو عنده . فقال : أطع أبا القاسم . فأسلم فخرج النبى ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذى أنقذه من النار » (٢) .

ومن وراء ذلك . تقوم مبادى الإسلام على المودة ، والحب ، وعلى التعاون البناء ، والمثمر . .

ولهذا يعمل على توثيق الصلات الحميدة بينه وبين المجتمعات حوله . .

وفى قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين

---

(١) سورة المائدة آية ٥ .

(٢) الاذكار للنووى ص ٣٢٥ رواه البخارى وأبو داود

ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

ترخيص من الله تعالى ، فى صلة الذين لم يعادوا المسلمين ، ولم يقاتلوهم .

وهذه الآية تدل على جواز البربين المشركين والمسلمين [١] . .

وقال ابن جرير الطبرى : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، قول من قال : عنى بذلك « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين » من جميع أصناف الملل والأديان » [٢] .

وهذه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما . . قالت : قدمت أمى – وهى مشركة – فى عهد قريش إذ عاهدوا (بعد صلح الحديبية) فأتيت النبى ﷺ .

فقلت يا رسول الله إن أمى قدمت وهى راغبة . أفأصلها ؟

قال : نعم صلى أمك » [٣] .

وروى أيضا الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير . . قال : قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا صناب [٤] .

وقرظ ، وسمن ، وهى مشركة . .

فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها . . فسألت عائشة

---

(١) تفسير القاسمى الجزء السادس عشر ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) تفسير الطبرى . الجزء الثامن والعشرون ص ٤٣ .

(٣) رواه أحمد والشيخان .

(٤) تفسير القاسمى « والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب »

النبى ﷺ . . فأنزل الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين » الآية فأمرها أن تقبل هديتها ، وتدخلها بيتها . . [1] .

وعن على قال : أهدى كسرى لرسول الله ﷺ فقبل منه ، وأهدى له قيصر فقبل منه . وأهدت له الملوك فقبل منها [2] .

وعن أنس ، أن أكيدر دومة الجندل ، أهدى لرسول الله ﷺ . جبة سندس [3] .

وفى الصحيحين من حديث على . . أن أكيدر دومة الجندل أهدى إلى النبى ﷺ . ثوب حرير . فقال شققه بين الفواطم [4] .

فالإسلام دين التسامح والإنسانية ، والقيم الهادفة . . يرغب فى أن يعيش الناس فى تراحم ومودة . .

---

(١) تفسير القاسمى . الجزء السادس عشر ص ٥٧٦٩ .

(٢) الروضة الندية الجزء الثامن ص ١٦٣ .

(٣) الروضة الندية ج ٢ ص ١٦٣ والحديث متفق عليه

(٤) نفس المصدر والفواطم : فاطمة الزهراء ، وفاطمة بنت أسد ، أم على . وفاطمة بنت حمزة .

من دوافع الهجرة إسلام الأنصار

من أسباب الهجرة الكبرى . . بدء إسلام الأنصار . .

والأنصار يمثلون قبيلتى الأوس والخزرج بيثرب وفى ظل الإسلام . . أصبحوا : الأنصار . . وإطلاق الأنصار عليهم . . له مفاهيم ودلائل . . توحى بالإخاء الإسلامى ، والعمق الإنسانى . .

وهذا رسول الله ﷺ . . يقوم بمكة ، يدعو القبائل إلى الله ، ويعرض نفسه عليهم ، كل سنة بمجنة ، وعكاظ ، ومنى أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه ، ولهم الجنة . فلا تستجيب له قبيلة من العرب ، ويؤذى ويشتم ، حتى أراد الله إظهار دينه ونصر نبيه ، وانجاز ما وعد . . فساق إليه نفرا من الأنصار ، لما أراد الله بهم من الكرامة [1] ! .

ولما لقى رسول الله ، هذا النفر من الانصار ، قال لهم : من أنتم ؟ . . قالوا نفر من الخزرج . .

قال : أمن موالى يهود !

قالوا : نعم . .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم !

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد . الجزء الأول ص ٢١٧ .

قالوا : بلى . .

فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . .

وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام . . أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصنام . . فكانوا إذا كان بينهم شيء ، قالوا لهم :

إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه ، قتل عاد وإرم . .

فلما كلم الرسول أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : ياقوم : تعلمون والله إنه للنبى الذى توعدكم به اليهود ، فلا تسبقنكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه . .

بأن صدقوا . . وقبلوا منه ، ما عرضه عليهم من الإسلام . .

وقالوا : إنا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة ، والشر ، ما بينهم . . فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين . . فإن . . يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك . .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم . . ذكروا لهم رسول الله ﷺ ، ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشافيهم . .

فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله .[1] ؟

بيعة العقبة الأولى :

حتى إذا كان العام المقبل . . وافى الموسم « موسم الحج » من الأنصار إثنا عشر رجلا . . فلقوه بالعقبة [2].

وهى العقبة الأولى ، فبايعوا الرسول ، على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب . .

قال عبادة بن الصامت :كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله ، ﷺ على :

أن لا نشرك بالله شيئا . . ولا نسرق . . ولا نزنى . . ولا نقتل أولادنا . . ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا ، وأرجلنا . . ولا نعصيه فى معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك فأمركم إلى الله ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر[3] . ولما انصرف أهل المدينة إلى بلدهم ، بعث معهم الرسول ﷺ ، مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين . .

فكان مصعب يسمى « المقرىء » بالمدينة . وكان منزله على أسعد ابن زرارة [4] .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام ج ٢ ص ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ . .

(٢) العقبة ، مكان بمكة . .

(٣) سيرة النبى لابن هشام الجزء الثانى ص ٢٩٥ . .

(٤) سيرة النبى لابن هشام ج ٢ ص ٢١٦ .

فأقام مصعب عنده يدعو إلى الإسلام ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار . . إلا وفيها رجال ونساء مسلمون [1] .

بيعة العقبة الكبرى :

فى العام التالى لبيعة العقبة الأولى . . قدم على الرسول من المدينة . . ثلاثة وسبعون رجلا ، وامرأتان من الأنصار ، فبايعهم الرسول على الإسلام . .

قال كعب بن مالك : ثم خرجنا إلى الحج [2] . . وواعدنا رسول الله العقبة ، من أوسط أيام التشريق فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله لها ، نمنا تلك الليلة ، مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا ، لميعاد رسول الله ، ﷺ نتسلل تسلل القطا [3] . . مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة . . ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسـائنا «نسيبة بنت كعب أم عمارة ، وأسماء بنت عمرو» . . فاجتمعنا فى الشعب ، حتى جاءنا الرسول ، ﷺ ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه . . إلا أنه أحب أن يحضر امر ابن أخيه ، ويتوثق له . .

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٢) أى من السنة التالية للعقبة الأولى . .

(٣) تسلل القطا : أى نمشى بحذر حتى لا يشعر بنا أحد . .

فلما جلس الرسول ﷺ . . كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب . . فقال :

يا معشر الخزرج : إن محمداً منا ، حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده . . وأنه قد أبى إلا الإنحياز إليكم ، واللحوق بكم . . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه ، وخاذلوه ، بعد الخروج به إليكم . . فمن الآن فدعوه فى عز ومنعة من قومه وبلده . .

قال كعب : فقلنا له قد سمعنا ما قلت . . فتكلم يا رسول الله . . فخذ لنفسك ، ولربك ما أحببت ، تكلم رسول الله ، ﷺ . . فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام . .

ثم قال :

« أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم ، وأبناءكم » . .

فأخذ البراء بن معرور بيده . . ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق نبيا ، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا . . فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة [1] . ورثناها كابرا عن كابر فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان . .

فقال : يا رسول الله . . إن بيننا وبين الرجال حبالا [2] : وإنا

---

(١) الحلقة بتسكين اللام : الدروع . .

(٢) المراد : بيننا وبين اليهود مواثيق . .

قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ . .

فتبسم رسول الله ﷺ . . ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم » [1] . .

أنا منكم وأنتم مني . . أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . .

ثم قال رسول الله ، ﷺ : « اخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ، ليكونوا على قومهم بما فيهم » . .

فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس . .

فقال ﷺ للنقباء : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى » [2] .

قالوا : نعم [3] .

وحين هم القوم بالبيعة ، اعترضهم العباس بن عبادة بن فضة الانصارى (أخو سالم بن عوف) فقال : يا معشر الخزرج : هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم . .

قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن

---

(١) إن طلب دمكم فقد طلب دمى ، وإن هدم دمكم فقد هدم دمى . .

(٢) المراد بالقوم : المسلمون .

(٣) سيرة النبى . الجزء الثانى ص ٣٠٢ . .

كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلى : أسلمتموه . . فمن الآن فدعوه والله – إن فعلتم – خزى الدنيا والآخرة . .

وإن كنتم ترون أنكم وافون له ، بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف . . فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة . .

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف . .

فمالنا بذلك يارسول الله ، إن نحن وفينا بذلك ؟ . .

قال الجنة . .

قالوا : ابسط يدك . . فبسط يده . . فبايعوه . .

قال عاصم بن عمر بن قتادة :

والله ما قال ذلك العباس الا ليشد العقد لرسول الله ، فى أعناقهم . .

وقال عبد الله بن أبى بكر :

ما قال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة ، رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبى سلول ، فيكون أقوى لأمر القوم . . فالله أعلم أى ذلك كان [1] . . ونص البيعة كما قال : عبادة بن الصامت ، وكان أحد النقباء ، . قال :

« بايعنا رسول الله بيعة الحرب . . بايعناه على السمع ، والطاعة ، فى عسرنا ، ويسرنا ، ومنشطنا ، ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع

(١) سيرة النبى لابن هشام . الجزء الثانى ص ٣٠٦

الأمر أهله ، وأن نقول بالحق ، أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم » [1] . .

ومن هذا الحلف الجديد . . انفتح لرسول الله والذين معه . . باب واسع من أبواب القوة والفاعلية . . والقدرة على التحرك فى ثبات وصمود . .

(١) سيرة النبى لابن هشام الجزء الثانى ص ٣١١

التآمر على الرسول

عرفنا أن من دوافع هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام . . هو : اشتداد الأذى على المسلمين . . والدافع الثانى . . هو : بدء اسلام الأنصار . . وما ترتب على ذلك من بيعة العقبة الأولى والثانية . . .

أما الدافع الثالث . . فهو : تآمر قريش على رسول الله ﷺ ، ومن معه . .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال :

ما رأيت رسول الله ﷺ ، دعا على قريش ، غير يوم واحد ، فإنه كان يصلى ورهط من قريش جلوس ، وسلا جزور[1] قريب منه .

فقالوا : من يأخذ هذا السلا ، فيلقيه على ظهره ؟ . .

فقال عقبة بن أبى معيط : أنا فأخذه فألقاه على ظهره ، فلم يزل ساجدا حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره . . .

فقال رسول الله ﷺ : «اللهم عليك بهذا الملأ من قريش . . . » !

---

(١) السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٤٦٨ و الحديث رواه أحمد والبخارى ومسلم . وسلاجزور : هو الجلد الرقيق الذى يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفا فيه

وفى هذا الجو المكفهر . كان رسول الله ﷺ ، يدعو لربه عمليا فى صبر وطمأنينة فيذهب إلى الكعبة أمام الملأ من قريش ليؤدى الصلاة لله . .

وأسلوب الإرهاب لم يثن من عزم الرسول . . بل ظل قويا يواجه التحديات فى صمود . .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

اجتمع كفار قريش فى الحجر وأنا معهم . فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه . حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه . . فبينما هم فى ذلك ، طلع عليهم رسول الله ﷺ . فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ؟

لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم . . فيقول : رسول الله ﷺ : نعم أنا الذى أقول ذلك . .

قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه . . قال : فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه . وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله . ثم انصرفوا عنه[1] ؟

ويتحدث الرسول ﷺ عن هذا الايذاء فعن أنس رضى لله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد . . واخفت فى الله . وما يخاف أحد . .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ ١ص ١٨٧

ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة . ومالى ولبلال ما يأكله ذو كبد . إلا ما يوارى ابط بلال »[1] . .

وبهذه الكلمات الجامعة ، وصف رسول الله ﷺ ، محاولات قريش التى ذهبت كل مذهب فى إيذاء الرسول ﷺ ، وأصحابه الكرام . . دون أن تنال من ثبات النبى[2] . .

قال تعالى : «واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »[3] ! . .

بعد بيعة العقبة الكبرى ، وما كان فيها من نصرة الإسلام ، ومنعة أهله . . أمر الرسول ، ﷺ ، أصحابه . ، أن يلحقوا بالأنصار بيثرب على أن يتركوا مكة ، متفرقين ، حتى لا يثيروا ثائرة قريش عليهم . .

وبدأ المسلمون فى الهجرة إلى يثرب فرادى . . وفطنت قريش للأمر . . فحاولت أن ترد كل من استطاعت رده إلى مكة ، لتفتنه عن دينه . . أو لتعذبه وتنكل به . وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه . وأنها كانت تحبس من تستطيع حبسه ممن لم يطعها . . ورغم ذلك كله فقد ظهرت فى المسلمين المهاجرين . . بطولات رائعة . .

فهذا عمر بن الخطاب حينما أراد الهجرة ، تقلد سيفه ، وتنكب

---

(١) السيرة لابن كثير جـ١ ص ٤٧٢
(٢) الدين والحياة ص ٢٣ عدد رقم ٧٧
(٣) سورة الأنفال . . الأية ٣٠

قوسه[1] . وجعل فى يده أسهما ومضى قبل الكعبة . . والملأ من قريش بفنائها . . فطاف بالبيت سبعا ، متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى متمكنا ، ثم وقف على الحلق[2] واحدة ، واحدة . .

فقال لهم : شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس[3] من أراد أن تثكل أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى . .

يقول على بن أبى طالب : فما اتبعه أحد ، إلا قوم من المستضعفين ، علمهم ما أرشدهم ، ثم مضى لوجهه[4] . .

أقام رسول الله بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المسلمين إلا من حبس أو فتن . . . إلا على بن أبى طالب ، وأبا بكر الصديق . .

وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن الرسول فى الهجرة ، فيقول له الرسول ، ﷺ : «لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا » . . فيطمع أبو بكر أن يكونه[5] .

وكانت قريش تحسب لهجرة النبى إلى يثرب الف حساب . لقد كثر

---

(١) تنكب قوسه : القاه على منكبه . .

(٢) الحلق : بالتحريك جمع حلقة

(٣) المعاطس : جمع معطس بزنه مجلس وهو : الأنف وارغامها الصاقها بالرغام وهو التراب . وكنى بذلك عن الإهانة والذل . .

(٤) انظر : الرياض النضرة فى مناقب العشرة الجزء الأول ص ٢٥٩

(٥) انظر : سيرة النبى لابن هشام الجزء الثانى ص ٣٣١

المسلمون فى المدينة كثرة جعلتهم يكادون يكونون أصحاب اليد العليا . .

وهاهم أولاء المهاجرون من مكة ، ينصتون إليهم ، فيزيدونهم قوة . . فإذا لحق محمد بهم ، وهو على ما يعرفون من ثبات ، وحسن رأى ، وبعد نظر . . خشوا على أنفسهم أن يدهم اليثربيون مكة ، أو يقطعوا عليهم طريق تجارتهم إلى الشام ، وأن يجيعوهم ، كما حاولوا هم أن يجيعوا محمدا وأصحابه حين وضعو الصحيفة بمقاطعتهم وأكرهوهم على أن يلزموا الشعب [١] ، وأن يقضوا فيه ثلاثين شهرا . . .

وإذا بقى محمد بمكة ، وحاولوا منعه الخروج منها فهم معرضون لمثل هذا الأذى من جانب اليثربيين ، دفاعاً عن نبيهم ورسولهم . . فلم يبق إلا أن يقتلوه ليستريحوا من كل هذا الهم الواصب (الدائم) لكنهم إن قتلوه . . طالب بنو هاشم ، وبنو المطلب بدمه . . . وأوشكت الحرب الأهلية أن تفشو فى مكة ، فتكون شرا عليها ، مما يخشونه من ناحية يثرب [٢] . . وقد اتفق المشركون على الإجتماع فى دار الندوة [٣] . ليتشاوروا فيها . . ما يصنعون فى أمر محمد ، ﷺ ، حين خافوه . .

وغدوا فى اليوم الذى اتعدوا له . . وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة . .

---

(١) الشعب : الطريق بين جبلين

(٢) راجع : حياة محمد للاستاذ محمد حسين هيكل ص ٢٠٩

(٣) دار الندوة : هى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها . .

فاعترضهم إبليس[1] فى هيئة شيخ جليل . . فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفا على بابها . .

قالوا : من الشيخ ؟

قال : شيخ من أهل نجد ، سمع بالذى اتعدتم له ، فحضر معكم ، ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم[2] منه رأيا ونصحا . .

قالوا : أجل فادخل فدخل معهم ، وقد اجتمع أشراف قريش ، فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا ، فيمن اتبعه من غيرنا . . فاجمعوا فيه رأيا . . فتشاوروا . . ثم قال قائل منهم :

احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ، ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله[3] ؟ !

ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون : ليخرجن أمره من وراء هذا الباب ، الذى اغلقتموه دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم ، فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم .

ماهذا لكم برأى . . فانظروا فى غيره . .

---

(١) يبدو أنه أعرابى .

(٢) بضم الياء وسكون العين وكسر الدال

(٣) يقصدون زهيرا والنابغة

فتشاوروا . . ثم قال قائل منهم . . نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا . . فإذا أخرج عنا ، فوالله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع . . إذا غاب عنا ، وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا ، والفتنا كما كانت . .

فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى . . ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال ، بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك ، من قوله ، وحديثه ، حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . .

دبروا فيه رأيا غير هذا . .

فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه رأياً ، أراكم ماوقعتم عليه بعد , ,

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ . .

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة ، فتى شابا جليدا (قويا) نسيبا ، وسيطا ، فينا . . ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدون اليه فيضربونه ، ضربة رجل واحد ، فيقتلونه فنستريح منه . .

فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف ، على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل (بالدية) فعقلناه لهم . .

فقال الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل . .

هذا هو الرأى الذى لا أرى غيره .

فتفرق القوم على ذلك ، وهم مجمعون له [1] . .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

«تشاورت قريش ليلة بمكة . . فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق . يريدون النبى ﷺ .

وقال بعضهم : بل اقتلوه . .

وقال بعضهم : بل اخرجوه . .

فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك [2] . .

وروى ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى مستدركه عن ابن عباس قال :

دخلت فاطمة على رسول الله ، ﷺ ، وهى تبكى . .

فقال : ما يبكيك يا بنية ؟ . .

قالت : يا أبت ومالى لا أبكى ، وهؤلاء الملأ من قريش فى الحجر . يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . . لو قد رأوك ، لقاموا إليك فيقتلونك . وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك . .

فقال : يا بنية أئتنى بوضوء ، فتوضأ رسول الله ﷺ . . ثم خرج إلى المسجد . فلما رأوه . .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام الجزء الثانى ٣٣٩

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير الجزء الثانى ص ٣٠٣

قالوا : هاهو فيها . .

فطأطأوا رءوسهم ، وسقطت رقابهم ، بين أيديهم . فلما يرفعوا أبصارهم ، فتناول رسول الله ﷺ ، قبضة من تراب ، فحصبهم بها . .

وقال : شاهت الوجوه . .

فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً [1] . .

ولقد حاول المشركون ، مرات عديدة ، القضاء على الرسول ، وعلى أصحابه . . . والدعوة التي جاء بها . . ولكن محاولاتهم . . لم تستطع أن تنال شيئا من الدعوة ورجالها . .

ولقي رسول الله ، ﷺ ، من أذى قريش ، ما أعنته ، وشق عليه . . وما كان جديرا أن يلين قناة أشد الناس صلابة . .

ولكن صاحب الدعوة . . لم يستسلم لجبروت قريش ، وما انزلته به من عذاب ، وهوان . .

وظل يدعو إلى الله ليلاً ، ونهاراً ، سراً ، وعلناً ، صابرا مجاهداً . .

وصاحب الرسالة . . لا يتوانى . ولا يتمهل . ولا يعرف السلبية . ولا التواكلية . .

كما لا تضعف من عزيمته ضربات الجهال الذين الفوا ما عليه الآباء من جاهلية . .

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير الجزء الثانى ص ٣٠٣ قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة

التخطيط للهجرة

لقد كانت عناية الله تعالى . . تلازم رسول الله ، ﷺ ، ورعايته تحيط به . .

فعندما أجمع المؤتمرون فى دار الندوة ، على قتل الرسول ﷺ . .
أذن الله لرسوله فى الهجرة . . فبدأ رسول الله فى التخطيط ، والتنظيم ، والتدبير . .

فخرج إلى أبى بكر فى حر الظهيرة ، حتى لا يراه أحد . .
قالت عائشة رضى الله عنها :
فبينا يوما نحن جلوس فى بيتنا بمكة ، فى حر الظهيرة[1] !
قال قائل لأبى بكر :
هذا رسول الله مقبلاً متقنعا (مغطيا رأسه) فى ساعة لم يكن يأتينا فيها . .

فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى إن جاء[2] ؟
فجاء رسول الله . . فاستأذن ، فأذن له . . .

---

(١) حر الظهيرة : أول الزوال عند شدة الحر
(٢) معناه : ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر حدث . .

ولما دخل رسول الله ، ﷺ ، تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس الرسول ، وليس عند أبى بكر إلا عائشة واسماء ، ابنتا أبى بكر . .

فقال الرسول ﷺ : اخرج عنى من عندك ؟

فقال : يا رسول الله ، إنما هما ابنتاى ، وماذاك فداك أبى وأمى ؟

فقال ﷺ : قد أذن لى فى الخروج والهجرة .

فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله .

قال : الصحبة .

ولما أجاب الرسول ﷺ ، أبا بكر إلى الصحبة قالت عائشة : فوالله ما شعرت قط ، قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ . . ثم قال : يا نبى الله . . هاتان راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا . .

وكان أبو بكر قد تجهز قبل مهاجرا . .

فقال له الرسول ﷺ : على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى . .

فقال أبو بكر : وترجو ذلك بأبى أنت وأمى ؟ . .

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله لصحبته ، وعلف راحلتين كانتا عنده . .

واستأجر الرسول وأبو بكر . . رجلا من بنى الديل يسمى عبد الله ابن أريقط . . ليدلها على الطريق إلى المدينة وكان أبو بكر قد دفع إليه بالراحلتين . . اللتين كانتا عنده . . يرعاهما لميعادهما . . وامره أن

يحضرهما له فى المكان الذى سيبينه له بعد . .

واتفق الرسول ﷺ ، مع أبى بكر . . على تفاصيل الخروج . . فتخيرا الغار الذى يأويان إليه . تخيراه جنوبا فى اتجاه اليمن ، لتضليل المطاردين . .

واتفقا على خروجهما ليلاً إلى الغار فيمكثان فيه ثلاث ليال[1] .

وقريش تركت الأعين ، ترصد محمدا ، صلوات الله وسلامه عليه ، وتعد عليه حركاته ، وسكناته . .

وفى ليلة تنفيذ مؤامرة قتل الرسول عليه الصلاة والسلام ، يأذن الله له فى الهجرة . . ليكون فى نجاته منهم صدًى مريرا فى نفوسهم ، ورنة أسى فى أعماقهم . . وفى الوقت نفسه . . تنبيه للعاقلين . . بأنه رسول الله . وأن الرسالة ستؤتى ثمارها رغم أنف المشركين . يضاف إلى ذلك . . أن نجاة الرسول ليلة تنفيذ المؤامرة . . سيعلم به الدانى والقاصى . . وفى هذا إعلام بصدق الدعوة وصدق الداعى . . وأن رعاية الله تحوطها وتحفظها . . وتمكن الرسول ﷺ ، من مغادرة مكة ، فى جوف الليل ، وفى رفقته أبو بكر رضى الله عنه . . وإمعانا فى السخرية بقريش ، وبزعمائها المتآمرين ، وبمن انتدبتهم لحراسة محمد ، ورصد كل حركاته وسكناته . .

أخذ الرسول حفنة من تراب ، فى يده وأخذ الله على أبصار القوم عنه ، فلا يرونه . .

---

(١) الدين والحياة عدد ٣٩ ص ١٢ ، ١٣ .

فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو : «يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون» . .

ولم يكد يفرغ الرسول من تلاوة هذه الآيات ، حتى لم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا . ثم انصرف حيث أراد . .

وكان رسول الله ، ﷺ ، قد طلب من على بن أبى طالب أن ينام على فراشه . .

قائلاً : «نم على فراشى وتسج (تغط) ببردى الحضرمى الأخضر فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه» .

وكان رسول الله ، ينام وبرده ذلك عليه إذا نام . . وهنا تتجلى فدائية على . . فقد أطاع أمر رسول الله ﷺ . .

وكان صلوات الله عليه ، قد أمر عليا ، أن يتخلف عنه بمكة حتى يؤدى الودائع التى كانت عنده للناس . . . وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شىء ، يخشى عليه . إلا وضعه عنده . لما يعلم من صدقه وأمانته .

وأقام على بمكة ثلاث ليال وأيامها . . حتى أدى عن رسول الله

الودائع التى كانت عنده للناس حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ[1] .

ومن هذا ندرك حرص رسول الله . . على أداء حقوق وأمانات الناس . .

ولما خرج رسول الله ، ﷺ ، مهاجرا ، خرج ليلاً . . فتبعه أبو بكر ، فجعل يمشى مرة أمامه ، ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن شماله . . .

فقال له الرسول : ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا عنك . . فقال : يارسول الله . اذكر الرصد (المتربصين ارادة السوء) فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن شمالك ، لآمن عليك[2] . .

وهذا ينبىء عن صدق إيمان أبى بكر ، وإخلاصه لدعوة الإسلام ، ورسولها الأمين . .

والمخلصون دائما ، يعملون فى تضحية ، وفداء ، ونكران ذات . .

وانتهى رسول الله ، وأبو بكر إلى الغار ليلاً . . فدخل أبو بكر الغار ، قبل الرسول ﷺ . . فلمس الغار ، لينظر : أفيه سبع أو حية . يقى رسول الله بنفسه[3] .

ولما كانت ليلة رسول الله ، ﷺ ، فى الغار قال لصاحبه أبى

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ٢ ص ٣٣٣ والروض الأنف جـ١ ص ٢٩٢

(٢) الرياض النضرة جـ١ ص ٩٠

(٣) سيرة النبى لابن هشام الجزء الثانى ص ٣٣٦

بكر : أنائم أنت ؟ . .

قال : لا . . وقد رأيت صنيعك وتقلبك يا رسول الله فما بالك بأبي أنت وأمي ؟ . .

قال : جحر رأيته قد انهار ، فخشيت أن تخرج منه هامة تؤذيك أو تؤذيني . .

فقال أبو بكر : فأين هو يا رسول الله ؟ . .

فأخبره . . فسد الجحر . . وألقمه عقبه . .

فقال رسول الله ، ﷺ : « رحمك الله من صديق . صدقتني حين كذبني الناس ، ونصرتني حين خذلني الناس ، وآمنت بي حين كذبني الناس . وأنستني في وحشتي . فأي منة لأحد علي كمثلك »[1] . .

وروى أنه لما عمى الأثر على المشركين جاءوا بالقافة (الذين يقفون الأثر أي يتتبعونه) حتى انتهوا إلى باب الغار . . فعندما رأى أبو بكر ذلك اشتد حزنه على رسول الله . .

وقال : إن قتلت أنا ، فإنما أنا رجل واحد . وان قتلت أنت هلكت الأمة . .

فعندها . قال له رسول الله ، ﷺ : « لا تحزن إن الله معنا »[2] . .

وفي وقوف القافة على باب الغار . . قال قائل منهم : ادخلوا هذا الغار . فربما يكونون فيه . .

---

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة الجزء الأول ص ١٩٢

(٢) الروض الأنف الجزء الأول ص٤

فيقول آخر : إن على باب الغار لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد . ولو دخل فى هذا الغار أحد لتهدم بيت العنكبوت ويقول آخر : وإن على بابه أيضا لحمامتين قد باضتا على باب الغار . . وهل يعقل أن يدخل أحد الغار بدون أن يهيج ذلك الحمام ويكسر بيضه . . .

وفى أثناء ذلك يبكى أبو بكر . .

فيقول الرسول ﷺ : ما يبكيك يا أبا بكر ؟

فيقول يا رسول الله . لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا . .

فيقول النبى ﷺ له : يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما . . يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا[1] ! .

وأقام رسول الله فى الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر . . وجعلت قريش فيه حين فقدوه : مائة ناقة لمن يرده عليهم . . وكان عبد الله بن أبى بكر ، يكون فى قريش نهاره معهم فيسمع ما يأتمرون به ، وما يقولونه فى شأن رسول الله وأبى بكر . . ثم يأتيهما إذا أمسى ، فيخبرهما الخبر[2] . . .

وكان عامر بن فهيرة ، مولى لأبى بكر ، يرعى فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما (على رسول الله وأبى بكر) ومعه الغنم ، فاحتلبا ، وذبحا . .

فإذا عبد الله بن أبى بكر ، غدا من عندهما إلى مكة ، أتبع عامر ابن فهيرة أثره . . بالغنم ، حتى يعفى عليه (أى تضيع آثار مسير

---

(١) من السيرة العطرة للشيخ محمد أحمد الاختيار ص ١٠٩ طبع مجمع البحوث الاسلامية السنة الثالثة الكتاب الثلاثون وانظر (الروض الأنف) الجزء الثانى ص ٤

(٢) سيرة النبى لابن هشام الجزء الثانى ٣٣٦

عبد الله » [1] ! ! .

ولما جاء عبد الله بن أريقط بالراحلتين . . ركب رسول الله ، ﷺ إحداهما . . وركب الصديق الأخرى وأردف خلفه عامر بن فهيرة مولاه ليخدمها فى الطريق[2] ؟ !

وتقول أسماء بنت أبى بكر : لما خرج رسول الله ﷺ ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، أتانا نفر من قريش . . فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبى بكر . . فخرجت إليهم . .

فقال : أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ . .

فقلت : لا أدرى والله أين أبى . .

قالت : فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشاً خبيثا ، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى[3] . .

ولقد كانت أسماء تأتى الرسول وأباها بالطعام إذا أمست ، وبما يصلحها .

ولما عزما على الهجرة ، أتتهما أسماء بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاما[4] ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة . . فإذا ليس لها عصام . فتحل نطاقها فتجعله عصاما ، ثم علقتها به . . فكان يقال لأسماء : ذات النطاقين . .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ ٢ ص ٣٣٦

(٢) سيرة النبى جـ٢ ص ٣٣٦ والسيرة العطرة ص ١٠٩

(٣) القرط : هو ما يعلق فى الأذن من الحلية

(٤) العصام : الرباط تعصم به فم السفرة . .

ولما خرج رسول الله . ، وخرج أبو بكر معه . احتمل أبو بكر ماله كله (وكان خمسة آلاف أو ستة آلاف) فانطلق بها معه . .

تقول أسماء : فدخل علينا جدى أبو قحافة (وقد ذهب بصره) .

فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه .

قلت : كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا فأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده . .

فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال . فوضع يده عليه . .

فقال : لا بأس إن كان ترك لكم هذا . . فقد أحسن وفى هذا بلاغ لكم . .

تقول اسماء : ولا والله ما ترك لنا شيئا . ولكنى أردت أن اسكن الشيخ [1] . .

عبر بالغة . . وتخطيط محكم . . كل ذلك ينبىء عن عقلية إسلامية واعية . .

والعقلية الإسلامية . . لها طابع مميز عما عداها . . .

ولهذا انتصر المسلمون على أعداء الحق . . رغم ما بذل من جهود لإعاقة المسيرة الإسلامية . . .

ومضى الركب الإسلامى . . . يقطع الطريق بأناة وصبر . . معتمدا على الله . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون . .

(١) سيرة النبى لابن هشام ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ الجزء الثانى . . .

عنايـــة الله

قال تعالى :

« يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين [1] » ! . .

وقال تعالى :

« إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى إثنين إذ هما فى الغار . إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها [2] » . .

وقال تعالى :

« واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين [3] » . .

آيات بينات ، تدل فى وضوح ، على عناية الله برسوله ، وعناية

---

(١) سورة المائدة أية رقم ٦٧

(٢) سورة التوبة أية رقم ٤٠

(٣) سورة الأنفال أية رقم ٣٠

رب العزة ، فوق كل اعتبار ، وفوق كل حديث . ونلمس ذلك فى كل التحركات . . .

فلما أمر الله رسوله بالهجرة . . أسر إلى على أن يبيت فى مضجعه . فبات على ، واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من ثقب فى الباب ، ويرصدونه ، ويأتمرون أيهم يحمل على المضجع صاحب الفراش . . .

فخرج رسول الله ﷺ عليهم وهم جلوس على الباب . فأخذ حفنة من البطحاء : فجعل يذرها على رءوسهم ، ويتلو قول الله تعالى : «يس . والقرآن الحكيم» حتى بلغ «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون[1] » .

ومضى رسول الله ، ﷺ ، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم . .

فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ . .

قالوا : محمدا . .

قال : خيّبكم الله قد والله خرج عليكم محمد . . ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابا . . وانطلق لحاجته . .

أفما ترون ما بكم ؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فإذا عليه تراب . .

ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله ، ﷺ ، فيقولون : إن هذا لمحمد نائما ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد الجزء الأول ص ٢٢٨

حتى أصبحوا . . فقام على رضى الله عنه ، من الفراش . .

فقالوا : لقد صدقنا الذى حدثنا[1] . . وفى مسند البزار . . أن الله تعالى ، أمر العنكبوات فنسجت على وجه الغار ، وأرسل حمامتين وحشيتين ، فوقعتا على وجه الغار . وأن ذلك مما صد المشركين عنه[2] .

ومكث الصاحبان فى الغار معا . . يحيط بهما شىء من الترقب ، والرهبة ، ويحيط بهما المطاردون بالغار ، يقفون أمام بابه . . يتشاورون فى اقتحامه ، لاعتقادهم أن طلبتهم لابد أن يكون هذا الغار »[3] . فقد انقطع الأثر عنده إذن . . فليس هناك احتمال آخر ، يمكن أن يعول عليه . .

لكن لماذا انصرفوا دون أن يقتحموا الغار . . ؟

ألأنهم رأوا مثلاً نسيج العنكبوات على باب الغار ؟ إن حرصهم على أن يظفروا بمحمد عليه السلام ، لا يسمح لهم بأن يصرفهم عن الغار . . نسيج عنكبوت ، ولا بيض حمام . .

وهم الذين نقبوا الأرض شبرا شبرا عن محمد وصاحبه . ولم يكن يكلفهم اقتحام الغار جهدا ، ولا مشقة ، ولا وقتا . . حتى يعودوا مطمئنين إلى ما بذلوه من جهد ، فى الظفر به ، إذا لم يجدوه فى الغار . .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام الجزء الثانى ص ٣٣٣

(٢) الروض الأنف : الجزء الثانى ص ٤

(٣) الرسول وأبو بكر . . هما المشار اليهما

إننا ننسى شيئا مهمًّا . . بل بالغ الأهمية . . . أجل : إننا ننسى عناية الله ، بلا وسائل مادية ، عناية الله وحدها . . هى التى صرفت القوم عن اقتحام الغار . . عناية الله التى جعلت على محمد السكينة ، وحين بدأ الروع على وجه أبى بكر . . وقد لمح أقدام القوم ، حتى اعتقد أن لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما . . عندئذ قال له : يا أبا بكر : ماظنك باثنين الله ثالثهما : «لا تحزن إن الله معنا»[1] . .

وحينما خرج الصاحبان من الغار كان دليلهما على الطريق عبد الله بن أريقط . . وهو رجل مشرك . لم يؤمن بمحمد ولا برسالته . .

وقد يقال : كيف حدث هذا ؟ ألم يكن يفكر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فى أنه من الجائز والممكن أن يغدر به ، وَيَشِىَ به إلى طالبيه من قريش ، ولا سيما أن قريشا ، قد رصدت مائة بعير لِمَنْ يأتيهم بمحمد حيا أو ميتاً . ؟ ؟ ؟ . .

مثل هذا الخاطر ، لا بد أنه مر بذهنه عليه السلام .

لكن ماذا كان يفعل حيث لم يجد مسلماً ، يستطيع أن يكون دليله إلى يثرب ؟

هذا بالإضافة إلى أن فى ذلك تعمية للمشركين . .

إن محمدا صلوات الله وسلامه عليه ، أراد أن يقرر مبدأ واقعيا ، ساميا . .

فصالح الناس فى حياتهم متشابكة . .

(١) انظر كتاب (الهجرة بداية مراحل التحول) للأستاذ السمان ص ٢١٢ ، ٢١٣

ويجب أن لا يقف الاختلاف فى الدين عائقا ، دون تحقيق مصلحة . .

ولابد أن معنى آخر ، قد جال بخاطر الرسول صلوات الله وسلامه عليه . . فعبد الله بن أريقط ، وإن كان مشركا ، لا يدين بالإسلام . . إلا أنه عربى . . لا يجرده شركه من عروبته . والعربى معروف بالوفاء . ولا سيما إذا ارتبط بمهنته . .

فإذا اضفنا إلى ذلك أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، قد منحه ثقته ، فإن ذلك يقوى فيه نزعة الوفاء . . وكان رسول الله ﷺ ، مصيبا كل الإصابة فى تقديره[1] . . .

ولما أخذ عبد الله بن أريقط ، بالنبى ﷺ وصاحبه ، طريق الساحل ، وكان معهما أيضا : عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر . .

فمروا على أم معبد . عاتكة بنت خالد الخزاعية ، فطلبوا لبنا ولحما ، يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئا ، فنظر رسول الله ، ﷺ ، إلى شاة فى كسر الخيمة (أى جانبها) ، خلّفها – بفتح اللام المشددة – الجهد ، فسألها هل بها من لبن ؟

فقالت : هى أجهد من ذلك (تعنى أضعف)

فقال : أتأذنين لى أن أحلبها . . ؟

قالت : نعم بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلبا فاحلبها . .

فدعا بالشاة فاعتقلها ، ومسح ضرعها . . فدّرت ، ودعا بإناء

(١) الهجرة بداية مراحل التحول ص ٢١٠

يشبع الجماعة . . فحلب فيه ، وسقى القوم حتى رووا . . ثم شرب آخرهم . . ثم حلب فيه مرة أخرى . عللا بعد نهل[1] . ثم غادره عندها . . . وذهبوا ، فما لبث حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا ، فلما رأى اللبن عجب ، وقال : ماهذا ياأم معبد ؟ . .

قالت : إنه مر بنا رجل مبارك ، من حاله كذا وكذا .

فقال : صفيه ؟ فوصفته بأحسن الأوصاف ، فقال : هذا والله صاحب قريش . لو رأيته لاتبعته[2] .

ولما خرج رسول الله ، ﷺ ، من مكة مهاجراً إلى المدينة . . جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن يرده عليهم . .

قال سراقة بن مالك . . فبينا أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا . .

فقال : والله لقد رأيت ركبه ثلاثة ، مروا على آنفاً إنى لأراهم محمدا وأصحابه . .

قال : فأومأت إليه بعينى أن اسكت . . .

ثم قلت : إنما هم بنو فلان ، يبتغون ضالة لهم .

قال : لعله . ثم سكت . .

قال : ثم مكثت قليلاً ، ثم قمت ، فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لى من

(١) أى مرة بعد أخرى

(٢) راجع هذه القصة فى (الفتح الربانى) الجزء العشرون ص ٢٨٣

ظهر حجرتى ، ثم أخذت قداحاً لى كنت أستقسم بها . ثم انطلقت فلبست عدة الحرب ، ثم أخرجت قداحى ، فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره . .

قال : وكنت أرجو أن أرده على قريش ، فآخذ المائة ناقة . .

قال : فركبت على أثره . . فبينما فرسى يشتد بى عثر بى . . فسقطت عنه . . قال : فقلت ما هذا ؟

قال : ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره . .

قال : فأبيت إلا أن أتبعه . . فركبت فى أثره ، فلما بدالى القوم ورأيتهم . . عثر بى فرسى . . . فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخان كالإعصار . قال : فعرفت حين رأيت ذلك . أنه قد منع منى ، وأنه ظاهر . .

قال : فناديت القوم . .

فقلت : أنا سراقة بن جعشم . . أنظرونى أكلمكم . . فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه . .

قال : فقال رسول الله ، ﷺ ، لأبى بكر : قل له : وما تبتغى منا ؟ .

فقال لى ذلك أبو بكر . .

قلت : تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك .

قال : أكتب له يا أبا بكر . فكتب لى كتابا فى عظم أو فى رقعة ثم ألقاه إلى . فأخذته فجعلته فى كنانتى (جعبة السهام) ، ثم رجعت ، فسكت . . فلم أذكر شيئا مما كان . حتى إذا كان فتح مكة . على رسول الله ، ﷺ ، وفرغ من حنين ، والطائف . . خرجت ، ومعى الكتاب لألقاه . فلقيته بالجعرانة [1] ! فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار . فجعلوا يقرعوننى بالرماح . .

ويقولون : إليك إليك ماذا تريد ؟ . .

قال : فدنوت من رسول الله ، ﷺ ، وهو على ناقته .

والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه ، كأنها حجارة .

قال : فرفعت يدى بالكتاب . . ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لى . أنا سراقة بن جعشم . .

فقال رسول الله ، ﷺ : «يوم وفاء وبر . ادنه» . .

قال : فدنوت منه ، فأسلمت ، ثم تذكرت شيئا أسأل رسول الله ، ﷺ ، فما أذكره إلا أنى قلت يا رسول الله : الضالة من الإبل تغشى حياضى ، وقد ملأتها لإبلى ، فهل لى من أجر ، فى أن أسقيها ؟ . .

قال : نعم . . «فى كل ذات كبد حرى أجر» [2] . .

---

(1) الجعرانة : بين الطائف ومكة وهى إلى مكة أقرب . .

(2) حرى بفتح الحاء . وتشديد الراء مع الفتح ومعناها : عطش

قال : ثم رجعت إلى قومى ، فسقت إلى رسول الله ﷺ ، صدقتى [1] . .

وقد سقت هذه الرواية التى جاءت فى سيرة النبى لابن هشام ، عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم عن أبيه ، عن عمه ، سراقة بن مالك بن جعشم . . .

وسقتها بكاملها ، لما فيها من العظة البالغة ، والهداية الواضحة . .

فقد كانت عناية الرحمن ، تحوط الرسول الأمين ، وترعاه . . ومن كان الله معه . . كان الكون كله معه . . كما نأخذ من هذه الرواية . . وفاء رسول الله وبره بسراقة . . فزحمة الأحداث ، وطول الأيام لم تنس الرسول ﷺ ، وعده بالأمان لسراقة . . لأن الوفاء لا يمكن أن يؤجل . .

(١) سيرة النبى لابن هشام . الجزء الثانى ص ٣٣٨

قـــدوم الرسـول المدينـة

عن عبد الرحمن بن عويم بن ساعدة قال :

حدثني رجال من قومي ، من أصحاب رسول الله . . ﷺ

قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله من مكة ، وترقبنا قدومه . .

كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا[1] ننتظر رسول الله . .

فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس ، على الظلال ، فإذا لم نجد ظلا دخلنا . . وذلك في أيام حارة . . حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله جلسنا ، كما كنا نجلس . حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا . .

وقدم رسول الله ، حين دخلنا البيوت . .

فكان أول من رآه رجل من اليهود . . وقد رأى ما كنا نصنع ، وإنا ننتظر رسول الله ﷺ ، علينا . .

فصرخ بأعلى صوته : يا بني قيلة[2] ؟ . . هذا جدكم[3] .قد جاء . .

---

(١) حرتنا : خارج المدينة

(٢) قيلة : نسبة إلى الجد الأعلى الذي يجمع الأوس والخزرج

(٣) جدكم : حظكم

قال : فخرجنا إلى رسول الله ، وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر فى مثل سنه . . وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك . . وركبه الناس[1] وما يعرفونه من أبى بكر . . حتى زال الظل عن رسول الله فقام أبو بكر ، فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك[2] . . وروى البخارى بسنده إلى البراء بن عازب . . . .

قال : فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم برسول الله . .

وروى أبو داود عن أنس قال :

لما قدم النبى المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحاً ، بقدومه ، وأشرقت المدينة بحلوله فيها ، وسرى السرور إلى القلوب . .

وعنه أيضا قال : شهدت يوم دخول النبى المدينة . . فلم أر يوما أحسن منه . . ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ، ﷺ ، المدينة وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير[3] عند قدومه يقلن تهنئة له حال دخوله :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع[4]

---

(١) ركبه الناس : ازدحموا عليه
(٢) سيرة النبى لابن هشام الجزء الثانى ص ٣٤١
(٣) الأجاجير : الأسطحة
(٤) رواه البيهقى فى الدلائل

والناس فى الطرق والغلمان ، والخدم ، يقولون جاء محمد رسول الله ، ﷺ ، الله أكبر جاء محمد رسول الله[1] . .

وأخذ الأنصار يتسابقون فى الاحتفاء برسول الله ﷺ . .

وأقام رسول الله ، ﷺ ، بقباء فى بنى عمرو بن عوف . . من يوم الإثنين . . وخرج من بين أظهرهم يوم الجمعة . .

فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف . . فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى[2] . .

فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة . . فأتاه : عتبان بن مالك ، وعباس بن عبادة بن نضلة ، فى رجال من بنى سالم بن عوف . .

فقالوا يا رسول الله : أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة . .

قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة[3] . فخلوا سبيلها فانطلقت . . وكلما مر بقوم يدعونه إلى المقام عندهم . . فيقول لهم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

فسارت بعد أن خلوا سبيلها . وانطلقت حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار . . بركت على باب مسجده[4] ﷺ . وهو يومئذ مربد لغلامين[5] ، يتيمين من بنى النجار . وهما فى حجر معاذ بن

---

(١) المواهب اللدنية للزرقانى الجزء الأول ص ٣٥٨ - ٣٦١

(٢) بطن الواوى : المراد بن وادى (وانوناء)

(٣) الضمير فى إنها يعود إلى ناقة الرسول ﷺ .

(٤) مكان المسجد

(٥) مربد على وزن منبر . . والمراد به : جرن

عفراء[1] وهما : سهل وسهيل . ابنا عمرو . .

فلما بركت الناقة ، ورسول الله عليها ، لم ينزل ، وثبت فسارت غير بعيد ، ورسول الله ، واضع لها زمامها ، لا يثنيها به . .

ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت ، فيه . ثم تلحلحت وارزمت[2] ووضعت جرانها[3] . . فنزل عنها رسول الله ، ﷺ ، فاحتمل أبو أيوب الأنصارى رحل رسول الله ، فوضعه فى بيته . ونزل عليه رسول الله ، ﷺ . . . وسأل الرسول ، عن المربد لمن هو ؟

فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو . وهما يتيمان لى ، وسأرضيهما منه ، فاتخذه مسجداً[4] .

وهكذا يحتفى الأنصار برسول الله ، باذلين كل غال ونفيس . . تكريما وتقديراً له . .

وهذا ينبىء عن الإيمان الصادق ، والوفاء الخالص ، والبر العظيم . .

ومنذ وصول الرسول إليهم . . سموا الأنصار . . مع اختلاف قبائلهم ، وتعدد اسمائها ، وما بينها . .

ولم يعرف التاريخ منذ ذلك الحين اسما لقبائل الأوس والخزرج . .

---

(١) معاذ بن عفراء : كان وصيا عليهما

(٢) ارزمت : كان لها صوت

(٣) جرانها : مقدم عنقها

(٤) سيرة النبى لابن هشام الجزء الثانى ص ٣٤٣ بتصرف

إلا الأنصار . . . وهو اسم تكريم . . يدل على نصرتهم لرسول الله . . ويوحى بالتآخى الذى تم وتكامل فى ظل الإسلام . . وهذا أبو أيوب الأنصارى ، وأهله . . يشرفون بضيافة رسول الله ويتفانون فى خدمته . .

وقد أقام ﷺ ، فى بيت أبى أيوب ، حتى بنى له مسجده وبيوته . .

قال ابن اسحاق : حدث أبو أيوب قال : لما نزل علىَّ رسول الله ، فى بيتى ، نزل فى السفل[1] . . وأنام أنا وأم أيوب فى العلو . . فقلت له : يا نبى الله . بأبى أنت وأمى . إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتى . .

فأظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن فنكون فى السفل ، فقال يا أبا أيوب :

« أن ارفق بنا ، وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت » . .

قال : فكان رسول الله فى سفله ، وكنا فوقه فى المسكن . .

ولقد انكسر حب[2] لنا . . فيها ماء ، فقمت أنا وأم أيوب ، بقطيفة لنا ، مالنا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء ، تخوفا أن يقطر على رسول الله منه شىء فيؤذيه .

قال : وكنا نصنع له العشاء ، ثم نبعث به إليه فإذا رد علينا

---

(١) فى السفل : أى فى الدور الأول من المنزل وفى العلو : المراد فى الدور الثانى . .

(٢) حب لنا : المراد : الجرة الكبيرة . وهى بكسر الحاء

فضله ، تيممت أنا وأم أيوب ، موضع يده فأكلنا منه ، نبتغى بذلك البركة ،حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه ، وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوما . فرده رسول الله ﷺ ، ولم أر ليده فيه أثرا . .

قال : فجئت فزعا . . فقلت : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى . رددت عشاءك ، ولم أر فيه موضع يدك . . وكنت إذا رددته علينا ، تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة . .

فقال عليه الصلاة والسلام : «إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجى[1] . . فأما أنتم فكلوه » . .

قال : فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد ؟ . نعم . . تكريم ، وتقدير . . ينبىء عن حب الأنصار لرسول الله ﷺ . . والمهاجرين . . ويقول الله سبحانه وتعالى فى ذلك :

« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » [2] . .

---

(١) سيرة النبى جـ٢ ص ٣٤٥ .
(٢) سورة الحشر آية رقم (٩) .

الإيمان . . عقيدة وعمل . . إذ لا أثر للعقيدة ، يدل على صدق صاحبها ، إلا إذا أقام سلوكه عليها ، ووقف عند حدودها ، والتزم بما فيها . .

وبقدر ما يكون العمل . . تكون درجة الإيمان ، قوة وضعفا ، وزيادة ونقصا . .

والشريعة الإسلامية ، تنبثق من عقيدة الإسلام . تنظم حياة الفرد ، وحياة الأمة . . والعمل بها من أركان الإيمان ، ومقتضيات توحيد الله عز وجل «إن حقيقة الإيمان هى التصديق القلبى الذى يظهر أثره فى السلوك العملى . . » . .

أما سلوك الإيمان لدى ذويه فهو السمع والطاعة لما جاء عن الله . وما جاء عن رسوله ﷺ ، انقيادا لحكم الشريعة . . وهؤلاء المؤمنون الذين يتصفون بذلك هم المصلحون . لأن سبيل الفلاح هو الاستقامة على منهاج الله وشرعه (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » فمنطق الإيمان هو منطق التسليم المطلق لقضاء الله . وقضاء رسوله . .

وعلى هذه القاعدة يجب على الأمة المسلمة أن تبنى منهجها فى الحياة بكل شأن من شئونها . الاجتماعية . والاقتصادية . والسياسية . . وإلا كانت عاصية ضالة . ولا خيرة للمؤمنين فى سلوك منهج آخر . ما داموا متصفين بالإيمان . .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً بعيدا »[1] . .

وبناء دولة الإسلام لابد وأن يقوم على خضوع الناس فى أفعالهم الاختيارية لشرع الله . . حتى يتم التناسق فى الكون كله بخضوع الكائنات كلها لله . . ومن هذا المنطلق . . كان تأسيس دولة الإسلام . يعتمد على ركائز منهجية . . تضمن له الاستقرار . والاستمرار . .

وأول هذه الركائز والأسس . . المسجد . . والمسجد لغة : اسم لمكان السجود . ومنه قوله ﷺ : « وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » . .

قال الزركشى : كل مكان يتعبد فيه فهو مسجد . . والسبب فى اختيار كلمة المسجد لمكان الصلاة . . أنه لما كان السجود أشرف أعمال الصلاة . لقرب العبد من ربه . اشتق اسم المكان منه . فقيل :

(١) مجلة البحوث الاسلامية العدد الأول ص ٦٠ ، ٦٢ مقالة الشيخ الجليل مناع القطان . . . الرياض إدارة البحوث

مسجد . . ولم يقولوا : مركع . . ثم إن العرف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلوات الخمس . .

وأول لبنة يضعها رسول الله ﷺ فى بناء المجتمع الإسلامى . . هى تأسيس المسجد . .

قال تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » (١) . .

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى . . قال : « تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم . .

فقال رجل : هو مسجد قباء . وقال آخر : هو مسجد النبى ﷺ فقال رسول الله ، ﷺ : « هو مسجدى هذا » (٢) . .

وعن أنس بن مالك قال : لما قدم رسول الله ﷺ ، نزل فى علو المدينة ، فى حى يقال لهم : بنو عمرو بن عوف . فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم إنه أرسل إلى ملأ من بنى النجار . . .

قال : فجاءوا متقلدين سيوفهم . .

قال : فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ . على راحلته . وأبو بكر ردفه . وَمَلأُ بنى النجار حوله . . حتى ألقى بفناء أبى أيوب . .

قال : فكان يصلى حيث أدركته الصلاة . ويصلى فى مرابض الغنم . . ثم أمر بالمسجد . .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٨

(٢) تفسير القرطبى . . . الجزء الثامن ص ٢٥٩

فأرسل إلى ملأ من بنى النجار . . فجاءوا . .

فقال : يا بنى النجار ثامنونى بحائطكم هذا . .

فقالوا : والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . .

قال : وكان فيه ما أقول لكم . . كانت فيه قبور المشركين وكان فيه حرث وكان فيه نخل . .

فأمر رسول الله ﷺ . بقبور المشركين فنبشت . وبالحرث فسويت ، وبالنخل فقطع . . قال : فصفوا النخل إلى قبلة المسجد . . وجعلوا عضادتيه حجارة .

قال : وجعلوا ينقلون ذلك الصخر . وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ . معهم يقول :

اللهم لا خير إلا خير الآخرة
فانصر الأنصار والمهاجرة [1]

وثبت فى التاريخ أن المسجد كان أول شىء اهتم الرسول بإنشائه وأول ما قام للمجتمع الإسلامى كيان وسلطان . فحين وصوله ﷺ إلى قباء . . بعد عجز مطارديه من قريش . . عن عرقلة الهجرة . .

وأحس ﷺ بأن المجتمع الإسلامى قد قام كيانه ، وظهر سلطانه . . بادر فبنى بقباء مسجده الذى وصفه الله بأنه أسس على التقوى . وعقد فيه أول جمعة فى الإسلام »

وحين انتقل من قباء إلى المدينة . وترك للقصواء حبلها على

(١) راجع هذا فى «الفتح الربانى» الجزء الحادى والعشرين ص ٥

الغارب . لأنها مأمورة بالاتجاه إلى بقعة الأرض التى ستتشرف بقيام مركز الإشعاع الإسلامى عليها فأناخت فى مكان المسجد . .

وكان أول ما بادر إليه الرسول من عمل أن اشترى الأرض وأقام عليها المسجد الذى أصبح فيما بعد المسجد النبوى . وذلك قبل أن يفكر فى بناء دار لنفسه . ومساكن لأزواجه . أو معقل أو حصن وكان يشحذ همم المتطوعين فى أعمال البناء ، مشاركا فى ترديد أراجيز الحماس [1] . .

وهذا ينبىء عن دور المسجد فى بناء المجتمع الإسلامى ووظيفة المسجد أوسع شمولاً من مجرد كونه مكانا تؤدى فيه العبادات فقط . .

«إن مكان المسجد فى الإسلام . ليست مكانة ثانوية . وإن موقع المسجد من بين مؤسسات المجتمع الإسلامى ليس موقعا هامشيا . . بل هو موقع أساسى تصل حيويته وأهميته . إلى أن يكون فى مكان القمة من بين مؤسسات المجتمع الإسلامى . وفى موقع القلب منها . .

فالمسجد فى الإسلام . . هو المدرسة . والجامعة التى تمتاز بالبعد الروحى . الصانع والمشكل . . لكل القيم الفاضلة والنبيلة فى المجتمع . .

والمسجد فى الإسلام : هو المصنع الذى صاغ أولئك الرجال الذين قادوا ركب الحضارة الإنسانية . وأمسكوا بعجلة التوجيه

---

(١) انظر : مقال الدكتور محمد ناصر وعنوانه المسجد رسالته ودوره المنشور فى صحيفة أخبار العالم الإسلامى العدد رقم ٤٥١ ص ٣ الصادر فى ١٣٩٥/١٠/٢٩ هـ

الفاضل على مدى قرون من الزمان[1] . . »

ورسالة المسجد . . تجسيد للمنهج الشامل للشريعة الذى يشتمل الحياة جميعا بجوانبها التعبدية . والسياسية . والاجتماعية . والاقتصادية . والتربوية . والتوجيهية . والفكرية . . .

وبهذا كان المسجد فى الإسلام . . مسجدا للصلاة . . ركعا وسجودا . .

وللعبادة ذكرا وتلاوة واعتكافا . .

وجامعا لاجتماع الناس . والخطابة فيهم كل جمعة . وعندما يحزبهم أمر . .

وجامعة للكبار لإلقاء العلوم وتلقيها . .

ومدرسة للصغار للقراءة . والكتابة . .

وناديا لتناشد الأشعار . والأدب . والحديث . والمذاكرة . . ومحكمة للقضاء والفتوى . . ومعتقلا للأسرى والخاطئين . .ودارا للضيافة . . وملجأ للفقراء . . ومطعما للمساكين . .

ودار سكنى ومنامة لمن لا أهل له . . ومستشفى ودارا للتمريض . . ودارا لعقد الزواج . . ومصنعا للسلاح . . وبيت مال للمسلمين . ولقسمته بينهم ومآرب أخرى . .

المسجد معبد لله . وبيت من بيوته . للصلاة والعبادة . .

---

(١) انظر : أخبار العالم الإسلامى العدد رقم ٤٤٧ ص ١٤ الصادر فى ٢٤ رمضان ١٣٩٥ هـ مكة المكرمة .

ومن هذه الوظيفة الرئيسية اتخذ اسمه مسجدا . .

قال تعالى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة »[1] . .

وقال تعالى : « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحد »[2] .

وقال تعالى : « وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود »[3] . .

والمسجد جامع يجمع الناس للصلوات كل يوم ، وللخطابة كل جمعة ، وعندما يحزب الناس أمر هام . .

ومن هذه الوظيفة الرئيسية الثانية اتخذ اسمه . الجامع . . والمسجد الجامع . .

وكان عليه الصلاة والسلام ، إذا أراد جمع الناس لما يهمه ، ويهمهم من أعمالهم . . أمر مناديا ينادى :

الصلاة جامعة . . فيجتمعون فى المسجد لصلاة نهارية غالبا . . فإذا انتهت الصلاة ، صعد المنبر ، وخطبهم بما يريد . . آمراً . أو ناهيا ، أو مرشداً ، وموجها . .

والمسجد جامعة للكبار . . لإلقاء العلوم وتلقيها . . . فمنها تخرج

---

(١) سورة النور : آية رقم : ٣٦ .

(٢) سورة الجن : آية رقم : ١٨ .

(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٣٥ .

علماء الصحابة : عمر ، وعلى ، وابن عمر ، وابن عباس ، وابن مسعود . وزيد بن ثابت . ومعاذ بن جبل . وعائشة . وأمثالهم رضى الله عنهم . .

ومنها تخرج علماء التابعين : سعيد بن المسيب . وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى ، وعكرمة ، وعطاء ، وعمرة بنت عبد الرحمن . وأمثالهم رحمهم الله . . ومن جامعة المسجد تخرج الأئمة المجتهدون : أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد ، والليث ، والأوزاعى ، وابن المبارك . وابن جرير . والسفيانان . والحمادان . وأمثالهم رحمهم الله .

ومن جامعة المسجد . . تخرج علماء العالم الإسلامى خلفا بعد سلف . . فى جميع العلوم ، شرعية ولغوية ، دينية ، ودنيوية . . مدنية وعسكرية [1] . .

وإن شئت بعبارة أخرى . . فقل إن جامعة المسجد هى التى خرجت جهابذة رجال العلم والفكر فى كل ألوان المعرفة ، والفلك ، والجبر . والهندسة . والكيمياء . والطب . والفلسفة . والزراعة . . وسائر أنواع الفنون الحضارية . .

وقد تخرج من جامعة المسجد أساتذة الدنيا . وعمالقة العلم . . أمثال : ابن الهيثم . والكندى . والفارابى . وابن سينا ، والبيرونى ، والطوسى ، والبغدادى ، والدينورى ، والرازى ،

(١) أخبار العالم الإسلامى ع ٤٤٦ ص ١٠ ، ١٤ الدكتور محمد المنتصر الكتانى .

والقزويني . والأنطاكي . والزهراوى . والغافقى . والخوارزمى ، والصوفى ، وجابر ، والجاحظ ، وابن البيطار ، وابن النفيس ، وابن حيان . وابن حمزة . والإدريسى . والمسعودى . وابن بطوطة . وابن زهرة ، وابن منظور ، وابن مالك ، والفيروزابادى ، وابن رشد . . وغيرهم من الذين أصَّلوا الأصول . وقعدوا القواعد . . وقد تخرج من جامعة المسجد . . أبطال الحروب الإسلامية وقادة الدنيا كلها . .

أمثال عمر بن الخطاب . وعلى بن أبى طالب . وخالد بن الوليد ، والمقداد بن الأسود ، وعمرو بن العاص ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد . وصلاح الدين الأيوبى . . وغيرهم من أبطال الفتوحات الإسلامية . الذين قادوا المعارك بحكمة وعبقرية . . قلَّ أن تشهد الدنيا لهم مثيلا . . وهم الذين لم يدخلوا الكليات الحربية . . ولم يدرسوا فنون حروب الفرس والرومان .

إنما درسوا شيئا واحدا ، هو : القرآن الكريم وتعلموا فى جامعة المسجد . .

«والمسجد مدرسة للصغار . لتعليم القراءة والكتابة . ومبادىء العلوم ، وحفظ القرآن الكريم» .

قال ابن حزم وغيره : والتعلم فى المسجد للصبيان وغيرهم مباح . .

وفى الحديث النبوى عند أحمد فى المسند . وابن ماجة فى السنن : «من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيراً أو ليعلمه . كان كالمجاهد فى سبيل الله» . .

قال الشوكانى : فى الحديث الإرشاد إلى أن التعليم والتعلم فى المسجد أفضل من سائر الأمكنة . . وكان لرسول الله ، ﷺ ، حلقة فى المسجد . .

ففى صحيح البخارى . وصحيح مسلم . عن أبى واقد الليثى . . «بينما رسول الله . ﷺ ، فى المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر . . فأقبل اثنان ، وذهب واحد : فأما أحدهما فر أى . فرجة فى الحلقة فجلس فيها . . وأما الآخر فجلس خلفهم . .

فقال عليه السلام : «ألا أخبركم عن الثلاثة ؟ . .

أما أحدهم : فأوى إلى الله . . فآواه الله . .

وأما الثانى : فاستحيا . فاستحيا الله منه . .

وأما الآخر : فأعرض . فأعرض الله عنه [1] ! !

ويذكر سعيد بن المعلى رضى الله عنه . أن النبى ﷺ قال له . وهما فى المسجد : «لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن نخرج من المسجد » . .

قال : ثم أخذ بيدى . فلما أراد أن يخرج . . .

قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟

فقال : «الحمد لله رب العالمين . هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » [2] . .

---

(١) أخبار العالم الإسلامى ع ٤٤٦ ص ١٤

(٢) مجلة رابطة العالم الإسلامى ع ١١ س ١٣ ص ١٩

ومن كل هذا ندرك . . أن مدرسة محمد رسول الله ﷺ . . والتى كانت تتخذ المسجد مقرا لها . . كانت مدرسة تربوية . . بكل ما فى هذه الكلمة من مدلول ومفهوم . .

وإذا كانت وسائل التربية الحديثة تعتمد على :

١ – اشعار المتعلمين . بحاجتهم إلى معلومات أو فى فى الموضوع نفسه ، أو فيما له علاقة به . .

٢ – إثارة الشوق ، والاهتمام ، والترقب فى نفوسهم

٣ – حصر انتباههم ، وفكرهم فى الدرس ، وتوجيه نشاطهم العقلى ، إلى الدرس الجديد

بهذا يتشدق المربون المحدثون ، ويتيهون إعجابا وفخرا ، بجان جاك روسو ، وهربارت سبنسر [1] ، وجون ديوى . وغيرهم من فلاسفة أوربا وأمريكا فى العصر الحديث . .

وقد اهتمت كليات التربية بآراء هؤلاء وغيرهم ، اهتماما جعل لهم الريادة . .

ومادرى المربون أن محمدا ﷺ قد سبق هؤلاء وأولئك . . فى وسائل التربية وفن التدريس بأربعة عشر قرنا من الزمان . .

ووسائل الرسول محمد ﷺ ، تحتاج من المتخصصين الغيورين إلى إبراز . ليهتم بها طلاب العلم والدرس . ولتكون الرائد الأمين للفكر

(١) أخبار العالم الإسلامى ع ٤٢٦ ص ١٤

والعقل فى الحديث السابق الذى رواه أبو واقد الليثى والذى ذكر فيه إقبال ثلاثة نفر . .

قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم عن الثلاثة » ؟ . .

مادة علمية يريد أن يبرزها النبى ﷺ لأصحابه . . وللأمة الإسلامية . .

والرسول ﷺ . . يقدم للمادة العلمية . ويمهد لدرسه . بأسلوب يتلاءم تمام الملاءمة مع المادة العلمية . .

ولهذا يبدأ الدرس فى المسجد بكلمة : « ألا » التى تفيد فى أسلوبها العرض . . وألا مكونة من جزئين . . الجزء الأول . . الاستفهام بالهمزة .

والجزء الثانى . . النفى بلا . . وهى إلى جانب العرض تفيد الكلام تأكيدا . وترسخا فى الذهن . . والاستفهام والنفى فى (ألا) أداة للتنبيه وإيقاظ الشعور ، وشحذ الهمم . . وتلك لفتة بارعة يدعمها التفصيل المثير للاهتمام فى . . أمّا . . الأول ، وأمّا الثانى ، وأمّا الآخر . .

وفى الحديث الذى ذكره سعيد بن المعلى من أن النبى قال له : لأعلمنك سورة . . ثم سكت الرسول ﷺ . .

ولا شك أن الرسول أراد أن يكون لدرسه الموقع الفعال ، فى نفس الطالب . .

وسكوت الرسول ليس نسيانا . . بل أراد أن ينظر أثر التمهيد والمقدمة التى ألقاها على الطالب فى قوله «لأعلمنك سورة هى أعظم

السور فى القرآن قبل أن نخرج من المسجد » . .

ولما وجد المعلم . . إقبالا . وشوقا . ونهماً . وتطلعا إلى العلم والمعرفة . . ألقى الدرس النافع المفيد . . وهذا لون آخر من ألوان التربية فى جامعة المسجد فعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : دخل رجل المسجد ، فصلى ، ثم جاء إلى النبى . ﷺ . فسلم . . فرد عليه السلام . .

وقال : « ارجع فصل فإنك لم تصل » .

فرجع ، ففعل ذلك ثلاث مرات . .

قال : فقال : والذى بعثك بالحق ، ما أُحْسِنُ غير هذا فعلمنى ؟ . .

قال : « إذا قمت إلى الصلاة ، فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن . .

ثم اركع حتى تطمئن راكعا . .

ثم ارفع حتى تعتدل قائما . .

ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا . .

ثم ارفع حتى تطمئن جالسا . .

ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا . .

ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها . . »

وفى هذا اللون من التوجيه . . لم يقل الرسول لمن صلى إن صلاتك خطأ . . بل طلب إليه أن يصلى . . وهذا أسلوب تربوى تعجز عن

الوصول إليه كل أساليب التربية . . وكان الرسول يمسك عن البيان طالما لم يجد عوامل الطلب قد توفرت . .

وحينما أقبل الطالب يسأل . . أخذ يعلمه مطمئنا إلى أن تعليمه فى حالة إقبال الطالب قد صادف عقلا متفتحا ، وذهنا متيقظا . واستعدادا كاملاً . . وننتقل إلى لون آخر من إثارة الشوق . وحصر الفكر ، وتنبيه وسائل الإدراك .

وذلك أن أبا موسى الأشعرى . .

قال : صلى بنا رسول الله ، ﷺ ، صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ إلينا بيده ، فجلسنا . .

فقال : «إن الله تعالى أمرنى أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولا سديدا » .

ثم أتى النساء . . فقال : «إن الله أمرنى أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولا سديدا »[1].

وفى هذا نجد الرسول ﷺ . . يستعمل الإشارة بالحركة الجسمية المحسوسة . . والتى ولا شك أثارت التفات المصلين ، واهتمامهم بما سيُلْقى . .

ومعنى كل هذا . . أن الإسلام جاء بكل ما فى التربية من عمق ، ومفهوم وأصالة وعطاء . .

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير . الجزء الثالث ص ٥٢١ والحديث رواه ابن أبى حاتم

«ونقل ابن بطال . . الإجماع على أنه يستحب عقد حَلَقَاتِ العلم فى المساجد . .

والمسجد ناد لتناشد الأشعار ، والأدب ، ودار ندوة للتحدث والمذاكرة . .

وقد تنصب فيه المنابر لذلك . .

ففى صحيح الحاكم ، وسنن الترمذى ، عن عائشة رضى الله عنها ، قال : كان رسول الله ، ﷺ ، ينصب لحسان منبرا فى المسجد ، فيقوم عليه . . يهجو الكفار . . وعند البخارى ومسلم . . وعمر بن الخطاب فى المسجد ، وحسان بن ثابت ، ينشد . . فلحظ إليه عمر . . فقال حسان : كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك – يعنى رسول الله – ثم التفت إلى أبى هريرة . وقال : «أنشدك بالله أسمعت رسول الله ﷺ يقول : أجب عنى اللهم أيده بروح القدس . . قال نعم : » . وقد مدح كعب بن زهير رسول الله ﷺ فى المسجد ، بقصيدته الشهيرة التى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول
وماسعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت
كأنه منهل بالراح معلول

هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة
لايشتكى قصر منها ولا طول

وعند أحمد فى المسند ، والترمذى فى السنن ، عن جابر بن سمرة قال : «شهدت النبى ﷺ أكثر من مائة مرة فى المسجد ، وأصحابه يتذاكرون الشعر ، وأشياء من أمر الجاهلية . فربما تبسم معهم . .
والمسجد محكمة للحاكم ، وللفصل بين الخصوم ، وإنهاء نزاعهم . .

ففى صحيح البخارى . . تقاضى كعب بن مالك ، وابن أبى حدرد . . دينا كان عليه فى المسجد . . فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ، ﷺ ، وهو فى بيته . .
فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته . .

فنادى : ياكعب .

قال : لبيك يا رسول الله . .

فقال : ضع من دَيْنِكَ هذا وأومأ اليه – أى الشطر – قال : لقد فعلت يارسول الله . .

قال : لابن أبى حدرد : قم فاقضه . .

وفى الصحيحين : وقع الحكم بالتلاعن فى المسجد من رسول الله ، ﷺ . .

وقضى عمر بن الخطاب ، فى المسجد . . وكان شريح وابن أبى ليلى ، يقضيان فى المسجد . .

وقال مالك : جلوس القاضى فى المسجد للقضاء من الأمر القديم المعمول به . .

وقال ابن حزم : والحكم فى المسجد ، والخصام . . جائز . وأجاز أبو حنيفة . ومحمد بن مسلمة ، من أصحاب مالك : رفع الصوت فى المسجد بالعلم والخصومة وغير ذلك . . فيما يحتاج إليه الناس . لأنه مجمعهم ولابد لهم منه . .

والمسجد معتقل للأسرى والخاطئين . . ففى الصحيحين بعث رسول الله ﷺ ، خيلاً قِبَلَ نجد ، فجاءت برجل من بنى حنيفة ، يقال له : ثمامة بن أثال . فربطوه بسارية من سوارى المسجد . . وكان يمر به ثلاثة أيام . فى كل يوم . يقول له :

ما عندك يا ثمامة ؟

فيجيب : إن تقتل تقتل ذا دم . وإن تطلق تمنن على شاكر .

فقال ﷺ : أطلقوا أثامة . . فانطلق إلى نخل قريب من المسجد . فاغتسل ، ثم دخل المسجد ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله . وأن محمداً رسول الله . . وأبو لبابة بن عبد المنذر الأنصارى . . ربط نفسه فى عمود من المسجد النبوى تأديباً لنفسه . . حين استشارته بنو قريظة . وهم محاصرون من النبى ﷺ . فى أن يستسلموا فأشار بيده إلى حلقه وإنه الذبح . .

وقال حين ربط نفسه : لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله على . مما صنعت . .

فقال عنه . عليه الصلاة والسلام : «لو جاءنى لاستغفرت له .
فأما إذا فعل مافعل فما أنا بمطلقه من مكانه ، حتى يتوب الله عليه » . .

وبعد ست ليال من ربطه نفسه ، فى سارية المسجد ، نزل قوله تعالى :

«وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم»[1] !

فبشرته أم المؤمنين أم سلمة ، بذلك سحراً بعد الإذن النبوى . .

وحاول الناس أن يفكوا رباطه . . فقال لا . . حتى يطلقنى رسول الله بيده . .

فلما مر عليه رسول الله ﷺ . خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

والمسجد دار للوفود ، ومثابة لهم . . مسلمون . . وغير مسلمين . .

قدم على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . . وهو بمكة نحو من عشرين نصرانياً من الحبشة . . وقيل من نجران . فوجدوه فى المسجد . . فجلسوا إليه وكلموه وسألوه . . ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة . .

فدعاهم رسول الله ﷺ . إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن . . ففاضت أعينهم من الدمع . واستجابوا إلى الله . وآمنوا به ، وصدقوه ، وعرفوا منه ، ماكان يوصف لهم فى الإنجيل من أمره . .

وفيهم نزل قوله تعالى : «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٢

اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين»[١] ! !

وأنزل عليه السلام . وفد ثقيف فى المسجد . . وعند البخارى ، عن أنس بن مالك : قدم رهط من عكل على النبى ﷺ . . فكانوا فى صفة المسجد النبوى . .

والمسجد دار ضيافة . . ففيه أضاف عليه الصلاة والسلام . وفد ثقيف ، وعشيرة عكل . . والمسجد ملجأ للفقراء . . فكانوا الصفة من المسجد النبوى [٢] ! !

وعند البخارى عن أبى هريرة . . رأيت سبعين من أصحاب الصفة ، مامنهم رجل عليه رداء . . إما إزار . وإما كساء ، قد ربطوه فى أعناقهم . . فمنها ما يبلغ نصف الساقين . . ومنها ما يبلغ الكعبين . . فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته . .

والمسجد مطعم للمساكين . . كان يقصده المحسنون بالطعام والتمور . . ليأكل منها المحتاجون والمعوزون . فنى دلائل النبوة لثابت الأندلس : أن النبى صلوات الله وسلامه عليه . . أمر من كل حائط - بستان - بعذق [٣] يعلق فى المسجد . . يعنى للمساكين . .

(١) سورة المائدة : الآيتان ٨٢ ، ٨٣ . .

(٢) الصفة : موضع مظلل فى المسجد كانت تأوى إليه المساكين . .

(٣) العذق : عرجون النخلة بما فيه من الشماريخ ويجمع على عذاق .

وكان معاذ بن جبل . . المشرف على حفظها وقسمتها .

وفى سنن ابن ماجه . . عن عبد الله بن الحارث : كنا نأكل على عهد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى المسجد ، الخبز واللحم . .

والمسجد دار سكن ومنامة . . لمن لا أهل له ، ولا مسكن . .

وعند الشيخين : كانت فى المسجد النبوى . . وليدة أمة سوداء معتقة ، لها خِباء فى المسجد ، تسكن فيه . .

وعند البخارى . والنسائى ، وأبى داود . وأحمد ، عن عبد الله ابن عمر : كنا فى زمن رسول الله ، ﷺ ، ننام فى المسجد ، ونقيل فيه ، ونحن شباب . .

قال الحافظ : يباح المبيت فى المسجد . وضرب الخيمة فيه لمن لا مسكن له من المسلمين رجلاً كان أو امرأة عند أمن الفتنة . .

وقال ابن حزم : والسكن . والمبيت مباح فى المسجد ، ما لم يضق على المصلين . .

والمسجد . . مستشفى . ودار للتمريض . .

وعند الشيخين : أن سعد بن معاذ ، لما أصيب فى غزوة الخندق ، جعله عليه الصلاة والسلام ، فى خيمة لامــرأة من أسلم . . يقال لها : رفيدة ، فى المسجد النبوى . . كانت تداوى الجرحى . وتحتسب بنفسها على خدمة من كان فى ضيعة من المسلمين ، والمسجد . . فيه يعقد النكاح . ويعلن . ويحضره الناس . .

وفى سنن الترمذى : أعلنوا النكاح فى المسجد . . واحتج أبو عمرو ابن الصلاح بهذا الحديث ، وقال : يستحب عقد النكاح فى المساجد . .

والمسجد . . مصنع لصنع آلات الجهاد وإصلاحها . . حكى النووى عن بعض شيوخه . . أنه لا بأس بعمل الصنائع ، التى يشتمل نفعها المسلمين ، فى دينهم ، كالمثاقفة . وإصلاح آلات الجهاد ، مما لا امتهان للمسجد فى عملها . .

والمسجد . . بيت مال للمسلمين . ولقسمته بينهم ففى صحيح البخارى : أوتى النبى ﷺ بمال من البحرين . وكان مائة ألف . .

فقال عليه الصلاة والسلام : «الثروة فى المسجد» . وكان أكثر مال أوتى به عليه السلام ، فقسمه على الناس فى المسجد[1] ! !

هذا وغيره كثير . . مما زخرت به كتب السنن مما يدل على مكانة المسجد فى الإسلام . . وأنه ولا شك محور الحياة للمجتمعات الإسلامية . .

وكان للمسجد دوره فى بناء دولةالإسلام . واتساع ملكها . .

«وكان الرسول الأمين ، صلوات الله وسلامه عليه ، يجلس بالمسجد النبوى . بالمدينة المنورة . . لتعليم المسلمين دينهم . وتبصيرهم عاقبة أمرهم . . حتى كان مجلسه تنافساً بين الصحابة رضوان الله

---

(١) راجع مقال الكاتب الفاضل الدكتور محمد المنتصر الكتانى . من علماء المغرب . . صحيفة أخبار العالم الإسلامى التى تصدر بمكة المكرمة ع ٤٤٦ ص ١٤ الصادر فى ١٧ رمضان ١٣٩٥ هـ .

عليهم . . كلهم يبتغى السبق إلى حضور هذا المجلس النبوى ، والظفر بالإنصات إلى الذى لا ينطق على الهوى . .

«ولقد كان الصحابة . . بنوا لرسول الله دكانا من طين يجلس عليه . ليعرفه الغريب . إذا دخل المسجد . .

وكان تعليمه الناس يقوم على طريقتين :

أولاهما : وهى الأكثر . . أن يعلن على حاضرى مجلسه . . من القرآن . والتربية الخلقية والمواعظ . وأخبار الأنبياء السابقين . .

وثانيهما : جوابه عن أسئلة السائلين المسترشدين . وما يدور بينه وبين أصحابه . من أطراف الحديث[1] . . لقد لعب المسجد دوراً خطيراً فى التوجيه . والدعوة الإسلامية . وتدريب المسلمين على الأعمال الجماعية . . حتى تأصل فى نفوس المؤمنين . . إن كل مسلم منهم عضو فى بناء كامل متكامل . . وأحس المسلم أنه جزء من كل . .

ولازال المسجد هو المسجد . . فى حياة المسلمين فهو جامع وجامعة . .

وفى إمكان الأمة الإسلامية . . أن تعود إلى عزها وازدهارها وقوتها . .

وذلك إذا اتخذت المسجد . . منطلقاً للدعوة الإسلامية . .

---

(١) رابطة العالم الإسلامى ع ١١ س ١٣ ص ٥١ . رسالة المسجد عبر التاريخ للأستاذ أبى بكر القادرى .

والمسجد هو المسجد . . لا يعرف اليمين ، ولا اليسار ، ولا التقدمية . ولا الرجعية . .

ولا يقبل الحتمية . ولا الفلسفات الإلحادية العقيمة بل هو دار المؤمنين الذين يستجيبون لله ولرسوله . . .

الإخــاء الإســلامى

الإخاء الإسلامى . . هو الأصل الأصيل فى بناء دولة الإسلام . . وقيام الأمة الإسلامية . .

«ولقد كان العرب والناس معهم على شفا حفرة من النار . . متشاكسون . . متنافرون . . متحاربون سنين طويلة . . من أجل ناقة . .

فنزلت الآيات . . قيل لهم : تحابوا . . فتحابوا .

قيل لهم : تآخوا . . فتآخوا . .

ثم قيل لهم : انفروا . . فهبوا خفافا وثقالا ، وتنزلت الآيات . . فقالوا : سمعنا وأطعنا . . ومؤمنو مكة . . على اختلاف قبائلهم . . ما عرفنا لهم إسماً فى التاريخ ، إلا المهاجرين . .

ومؤمنو المدينة ، على اختلاف قبائلهم ، ما عرفنا لهم اسما فى التاريخ إلا الأنصار . .

فإذا بالفرقاء المتشاكسون . . دولة»[1] . .

والإسلام لم يكتف بإطلاق اسم المهاجرين . . على المؤمنين من

(١) مجلة البحوث الإسلامية العدد الأول ص ١٦ الرياض . .

أهل مكة ، المهاجرين إلى المدينة . ولم يكتف أيضاً بإطلاق اسم الأنصار على قبيلتى الأوس والخزرج . أبناء قيلة . والذين دخلوا فى الإسلام . . مع أن إطلاق الأنصار والمهاجرين . كافياً لإزالة كل ما يؤدى إلى التعصب . .

ولهذا بدأ رسول الله ﷺ فى البناء الأخوى الكامل . . ليقيم دولة الإسلام على أساس سليم .

قال ابن اسحاق :

وآخى رسول الله ﷺ ، بين أصحابه ، من المهاجرين والأنصار . .

فقال فيما بلغنا : «تآخوا فى الله أخوين أخوين»[1] ؟

قال تعالى :

«والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»[2] .

لقد بلغ المسلمون الأوائل فى الإيثار بكل ما تحمله كلمة إيثار من معنى ومفهوم ومدلول . بلغوا درجة عليا ، ومكانة عظمى . . بما وقر فى قلوبهم من إيمان ، وبما أشرق فى نفوسهم من يقين . .

إن قوة الإيمان ، والتصديق برسوله ﷺ ، تجعل النفس

---

(١) سيرة النبى لابن هشام . الجزء الثانى ص ٣٥١ . .

(٢) سورة الحشر . . آية رقم ٩ . .

الإنسانية ، تشرق بالكثير ، من صفات الخير ، وتتخلق بالآداب والفضائل العظيمة ، ولقد صنع ذلك الإيمان ، وهذا التصديق ، جماعة اصطبغ سلوكهم بالشمائل الجليلة . . فكانوا يؤثرون إخوانهم بأموالهم ، وديارهم على أنفسهم ، ويتنازلون عن قسمهم فى الغنائم من أجلهم ، ويقدمون حاجة إخوانهم على حاجتهم ، حبًّا لهم ، ورغبة فى إخوتهم [1] . .

والإيثار فى الإسلام . . هو : «تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية ، رغبة فى الحظوظ الدينية وذلك ينشأ عن قوة اليقين ، وتوكيد المحبة ، والصبر على المشقة . . يقال : آثرته بكذا ، أى خصصته به ، وفضلته [2] . .

والذين سكنوا المدينة ، وأشربت قلوبهم حب الإيمان ، من قبل هجرة أولئك المهاجرين . . لهم صفات كريمة ، وشيم جليلة ، تدل على كرم النفس ، ونبل الطباع [3] . .

ولذا كانوا يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدأون بالناس قبلهم ، فى حال احتياجهم إلى ذلك . .

وهؤلاء تصدقوا وهم . . يحبون ما تصدقوا به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه [4] ! !

---

(١) الدين والحياة .ع ١١٩ ص ٦ . وزارة الأوقاف .
(٢) تفسير القرآن . . للإمام القرطبى . ج ١٨ ص ٢٤ . .
(٣) تفسير القرآن للإمام المراغى . . ج ٢٨ ص ٤٣ .
(٤) تفسير القرآن العظيم . لابن كثير ج ٤ ص ٣٣٨ . بتصرف .

وجاء أن رسول الله ، ﷺ ، قسم أموال بنى النضير على المهاجرين . . ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر : أبا دُجَانَة سماك بن خرشة ، وسهل بن حنيف ، والحارث بن الصمة . .

وقال لهم : «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ، ودياركم ، وشاركتموهم فى هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة» . .

فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ، ولا نشاركهم فيها [1] . .

وقال رسول الله ﷺ ، للأنصار :

«إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا اليكم» . .

فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . .

فقال رسول الله ، ﷺ ، أو غير ذلك ؟ .

قالوا : وما ذاك يارسول الله ؟ .

قال : «هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم التمر» . .

فقالوا : نعم يا رسول الله [2] . .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قالت الأنصار للرسول ﷺ : أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . .

فقال الرسول : لا . .

---

(١) الكشاف للزمخشرى . ج ٤ ص ٨٤ . .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير . ج ٤ ص ٣٣٨ . رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

فقالوا – المهاجرون – اتكفونا المؤونة ونشرككم فى الثمرة ؟

قالوا : سمعنا وأطعنا [1] ! .

نعم . . إن الإيمان الصادق ، إذا صادف قلوباً هيئت له . تمكن فيها ، ونما ، وترعرع ، وأشرقت آثاره على من حولها . وسعى أصحاب هذه القلوب المؤمنة فى بذل كل ما يرضى من حولهم من المسلمين وكان أصحاب رسول الله ﷺ ، من خيرة من تمسك بفضيلة الإيثار . . حرصا على أخوة الإسلام ، وتودُّداً فى ظلال الإيمان . .

قال تعالى : «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم» [2] ! !

وقال تعالى :

«والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم . .» [3] ؟ !

والمؤاخاة فى الناس ، قد تكون على وجهين :

أحدهما : أخوة مكتسبة بالاتفاق الجارى مجرى الاضطرار . .

والثانية : مكتسبة بالقصد والاختيار . .

فأما المكتسبة بالاتفاق . . فهى أوكد حالا ، لأنها تنعقد عن أسباب تعود إليها . .

---

(١) تفسير القرآن العظيم . لابن كثير ج ٤ ص ٣٣٧ . رواه البخارى .

(٢) سورة الفتح . . آية رقم ٢٩ . .

(٣) سورة الانفال آية رقم : ٨٥ . .

والمكتسبة بالقصد ، تعقد لها أسباب ، تنقاد إليها وما كان جاريا بالطبع ، فهو ألزم مما هو حادث بالقصد [1] !

فأما المكتسبة بالاتفاق فله أسباب .

ما هو إلا له سبب يبتدى منـــه وينشعب

وأول أسباب الإخاء : التجانس فى حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها . . فإن قوى التجانس ، قوى الائتلاف به ، وإن ضعف كان ضعيفاً ، ما لم تحدث علة أخرى يقوى بها الائتلاف . .

وإنما كان كذلك ، لأن الائتلاف ، بالتشاكل ، والتشاكل بالتجانس . . فإذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ، ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف . . فثبت أن التجانس وإن تنوع . أصل الإخاء ، وقاعدة الائتلاف . .

وقد روى يحيى بن سعيد ، عن عمر ، عن عائشة رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ ، أنه قال : «الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وماتناكر منها اختلف» . .

فالأرواح بالتجانس متعارفة ، وبفقده متناكرة .

قال الشاعر :

فلا تحتقر نفسى وأنت خليلها

فكل امرئ يصبو إلى من يشاكل

(1) أدب الدنيا والدين للماوردى ص ١٤٠ ط ١٧ المطبعة الاميرية ١٣٤٦ هـ ١٩٢٨ م .

وقال آخر :

فقلت : أخي قالوا : أخ من قرابة
فقلت لهم : إن الشكول أقارب

نَسِيبي في رأيي وعزمي وهمتي
وإن فرقتنا في الأصول المناسب

ثم يحدث بالتجانس . . المواصلة بين المتجانسين ، وهي المرتبة الثانية من مراتب الإِخاء . .

وسبب المواصلة بينهما ، وجود الاتفاق منهما ، فصارت المواصلة نتيجة التجانس . . والسبب فيه وجود الاتفاق . . لأن عدم الاتفاق منفر وقد قال الشاعر :

الناس إن وافقتهم عذبوا
أولا فإن جناهم مـــــر

كم من رياض لا أنيس بها
تركت لأن طريقها وعــر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة . . وهي المؤانسة ، وسببها : الانبساط . .

ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة . . وهي المصافاة ، وسببها : خلوص النية . .

ورتبة خامسة . . وهي المودة وسببها : الثقة . وهذه الرتبة هي أوفى الكمال في أحوال الإخاء . وما قبلها أسباب تعود إليها .

فإن اقترن بها المعاضدة . . فهى الصداقة ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة . . وهى المحبة ، وسببها : الاستحسان . فإن كان الاستحسان لفضائل النفس ، حدثت رتبة سابعة ، وهى الإعظام . .

وإن كان الاستحسان للصورة ، والحركات ، حدثت رتبة ثامنة . . وهى : العشق ، وسببه الطمع وقد قال المأمون رحمه الله تعالى :

أول العشق مزاح وولع ثم يزداد إذا زاد الطمع
كل من يهوى وإن عالت به رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة آخر الرتب المعدودة ، وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ، ولا حالة محدودة . .

لأنها قد تؤدى إلى ممازجة النفوس . . وإن تميزت ذواتها ، وتفضى إلى مخالطة الأرواح ، وإن تفارقت أجسادها . . وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ، ولا الوقوف عند نهايتها . .

وقد قال الكندى : الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك . .

ومثل هذا . . المروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضا وكتب له بها كتابا ، وأشهد فيه ناسا ، منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . .

فأتى طلحة بكتابه إلى عمر ليختمه ، فامتنع عليه . عمر . . فرجع طلحة مغضبا إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وقال : والله ما أدرى أنت الخليفة أم عمر ؟ . .

فقال : بل عمر لكنه أنا[1] . .

وأما المؤاخاة المكتسبة بالقصد . . فلا بد لها من داع يدعو إليها ، وباعث يبعث عليها . . وقد يكون الداعى لها من وجهين : رغبة وفاقة .

فأما الرغبة : فهى أن يظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخائه ، ويتوسم بجميل يدعو إلى اصطفائه . .

وأما الفاقة : فهى أن يفتقر الإنسان لوحشة انفراده ، ومهانة وحدته ، إلى اصطفاء من يأنس بمؤاخاته ، ويثق بنصرته وموالاته[2] ؟ ! وأعز ما تملكه الجماعات . . الإخاء . . فهو الرصيد الثابت ، والقاعدة الصلبة ، والمرتكز الصاعد . والأخوة فى الإسلام . . بلغت من السمو . . مبلغاً ، جعلها أساس الحياة . ولا حياة بدون إخاء وإخوان . .

والأخوة فى الإسلام تقوم على أصول أصيلة وقواعد متينة .

منها . . وحدة الأصل الإنسانى . .

فالناس جميعاً على اختلاف أجناسهم ، وتمايز ألوانهم ، وتباعد أقطارهم . . يرجعون إلى أب واحد ، وأصل واحد . .

ولطالما ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ، وبينها فى أساليب شتى ،

---

(١) أدب الذين والدين للماوردى ص ١٤٢ . .
(٢) أدب الدنيا والدين للماردوى ص ١٤٢ بتصرف واختصار .

وآيات متعددة . . لكى تكون دائماً موضع الاعتبار ، والرعاية .

قال تعالى : «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا»[1] .

وهذه آية عظيمة تقرر أصلاً من أصول الإسلام وهو المساواة بين الناس . .

ولقد قررت هذه الآية مبدأ ضخماً من المبادئ الإنسانية السامية . . فهى من معجزات هذا القرآن العظيم الذى أنزله الله ضياء للناس ونوراً يهتدون به ، وبرهاناً ساطعاً ينير السبل أمامهم[2] ! !

وكان العالم قبل انبثاق نور الإسلام . . يموج فى الظلم ، ويضطرب فى الفساد ، وتسوده الهمجية ، والعصبية الجاهلية ، وتخيم عليه ضلالات العصور القديمة ، وقد نشر الرعب أجنحته على الدنيا وزاد الفساد ، وتفاخر الناس بالأنساب ، وعاشوا تحت ظل نظام الطبقات .

فى هذه الظلمة الداكنة ، ينبثق فجر الإسلام ، فتبدد أنواره تلك الغيوم السوداء . .

وتنزل هذه الآية الكريمة ، لتقرر مبدأ إنسانيا عظيماً . . وهو إعلان المساواة بين البشر ، كل البشر[3] ! !

ويهتم القرآن الكريم بالإنسانية والبشرية اهتماماً بالغاً . .

---

(١) سورة الحجرات . آية ١٣ . .

(٢) نظرات فى سورة الحجرات للشيخ محمد محمود الصواف ص ١٤٧ طبع موسسة الرسالة بيروت . .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٨ .

وهذه كلمة (الناس) يتكرر استعمالها فى أساليب القرآن الكريم نحو من مائة وأربعين مرة : كثير منها جاء خطابا للبشر عموما ، وكثير منها ورد دالاً على الجنس البشرى . .

وهذه أيضاً كلمة (الإنسان) . . تتكرر أكثر من ثمانين مرة . . فى أساليب متنوعة . . عائدة بنا إلى أصل الإنسان . .

ولا شك أن استعمال (الناس والإنسان) بهذا الاهتمام . . يخلق فى المسلم . . تربية إنسانية تعجز عنها أساليب فلاسفة العالم . . أمثال : جان جاك روسو ، وهربارت سبنسر ، وجون ديوى ، ووليم جيمس . .

حتى كلمة (البشر) الدالة على الجنس الإنسانى الواحد ، تستعمل فى القرآن الكريم ، فى أكثر من خمس وثلاثين آية . .

وهكذا يهتم القرآن الكريم بكل ما من شأنه أن يوقظ فى الناس أحاسيس الإنسانية . .

إن الإسلام جاء ليقيم بين البشر رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق . .

« وفى إنشاء جميع البشر من نفس واحدة ، أيات بينات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته . وفى التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته ، وإرشاد إلى ما يجب من التعارف والتعاون بين البشر وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب ، وقبائل ، مدعاة إلى التآلف ، لا إلى

التعادى والتقاتل وبث روح العداوة ، والبغضاء بين الناس »[1] ؟ !

وعن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ، ولا إلى أنسابكم ، ولا إلى أجسامكم ، ولا إلى أموالكم . ولكن ينظر إلى قلوبكم . فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه . وإنما أنتم بنو آدم . وأحبكم إليه أتقاكم »[2] .

والمسلمون هم أحق الناس بالحفاظ على الأخوة ، وأجدر الناس بإتباع هدى القرآن . . وتعاليم الرسول ﷺ . .

ومن الأصول الاصيلة . . للأخوة فى الإسلام . . .

وحدة العقيدة . .

ووحدة العقيدة . . من أهم الركائز لوحدة المسلمين ، وتكامل أخوتهم . .

وعقيدة المسلمين واحدة ، لا تختلف باختلاف جنس من الأجناس ، أو لون من الألوان ، أو مصر من الأمصار ، أو جيل من الأجيال . .

هذه العقيدة قائمة وتقوم على الإيمان بالله وبرسول الله . . وبكل ما فى القرآن . . وأن الإسلام هو الإسلام ، والقرآن هو القرآن . .

ومن آيات العقيدة فى القرآن . . قوله تعالى : « **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ، واليوم**

---

(١) تفسير القرآن للمراغى . الجزء السابع ص ٢٠١ . .

(٢) انظر : التاج الجامع للأصول ج ١ ص ٦١ . .

الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون»[1] ! ؟

قال الإمام ابن كثير : اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة ، وقواعد عميمة ، وعقيدة مستقيمة[2] ؟ ؟

والآية كما ترى مشتملة على خمسة عشر خصلة وترجع إلى ثلاثة أقسام . .

فالخمسة الأولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل صحة الاعتقاد . وآخرها قوله (والنبيين) وافتتحها بالإيمان بالله واليوم الآخر . لأنهما إشارة إلى المبدأ والمعاد . .

والستة التى بعدها تتعلق بالكمالات النفسية التى هى من قبيل حسن معاشرة العباد . وأولها (وآتى المال) وآخرها (وفى الرقاب) . .

والأربعة الاخيرة ، تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل تهذيب النفس . وأولها (وأقام الصلاة) وآخرها (وحين البأس) . ولعمرى من عمل بهذه الآية ، فقد استكمل الإيمان ، ونال أقصى

---

(١) سورة البقرة . آية رقم ١٧٧ . .

(٢) تفسير القرآن لابن كثير ج ١ ص ٢٠٧ .

مراتب الإيقان[1] ! !

وعقيدة الإسلام واحدة لدى كل المسلمين فى شرق الأرض وغربها ، وشمالها وجنوبها ، تجتمع عليها قلوبهم ، وتحفظها عقولهم ، وتستيقنها نفوسهم ، ووحدة العقيدة . . جددت بين المسلمين ما مضى من قرابة الدم القائمة بينهم . .

وإذا كانت أبوة آدم عليه السلام أبوة مادية ، تجمع بين الأمة الإسلامية ، وتوحد بينها فى الأصل . فإن العقيدة الإسلامية هى أبوة روحية ، ترجع إليها فروع المؤمنين . .

والحق أن المؤمن حينما يستشعر جلال هذا الأصل الروحى ، الذى يجمعه وإخوانه المؤمنين ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، إلى جانب الأصل المادى الذى يرجعه معهم إلى أبوة واحدة . . فإنه حينئذ يشعر أنه إنما يحيا بإخوانه ، ويحيا لهم ويحس وكأنه غصن من أغصان شجرة عظيمة ، يحيا بحياتها ويموت بموتها[2] !

وإن رابطة العقيدة فى الإسلام . . وهى رابطة فى المبادئ والمثل العليا ، من أقوى عوامل الازدهار وتلك التعاليم هى أعلى وأقوى من رابطة الدم ، والنسب ، والمساكنة ، فى الوطن ، والمشاركة فى القومية . .

وهذا الأساس هو المنطلق الوحيد ، للخروج من قوقعة الأنانيات

---

(١) تفسير القرآن . للألوسى . الجزء الأول ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٢) المسلمون أمة واحدة عدد رقم ١٠١ ص ١٣ (الدين والحياة) . وزارة الأوقاف ، ١٣٩٣ هـ .

الفردية ، والقبلية ، والقومية ، إلى صعيد اللقاء الإنسانى ، على أساس المبادئ . مبادئ الحق ، والعدل . والخير . .

وفى هذا الإطار التربوى النفسى ذاته عالج الإسلام النفس الإنسانية ، إعدادا لها ، لتحقيق التعارف والتعاون . . فعالج آفاتها وأمراضها الحائلة دون التعاون . كالحقد والحسد والغل التى تثيرها دوافع النفعية للذات الفردية أو القبلية أو القومية [1] ؟ !

والأصل الثالث . . فى أصول الأخوة الإسلامية . وحدة مصدر التشريع . .

ومصدر التشريع واحد لدى المسلمين . . وهو القرآن الكريم . كتاب الله ، الذى أنزله ، ليكون دستور الخالق ، فى إصلاح الخلق ، ينظم الحياة ، ويعالج النفوس ، ويقوم اعوجاج المجتمع . .

قال تعالى : « **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس**

(١) استراتيجية العالم الإسلامى ص ٩٥ . وزارة الحج والأوقاف السعودية ذوالحجة ١٣٩١ هـ

لفاسقون»[1].

وقال تعالى : «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون»[2] . وقال تعالى : «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم»[3] . .

وإن الله عز وجل ، ذكر للنور ثلاث فوائد :

الأولى : أنه يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام أى أن من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالإيمان بهذا النور . . يهديه الطريق التى يسلم بها فى الدنيا والآخرة ، من كل ما يرديه ويشقيه . . فيقوم فى الدنيا بحقوق الله تعالى ، وحقوق نفسه الروحية والجسدية ، وحقوق الناس ، فيكون متمتعاً ، بالطيبات ، مجتنباً للخبائث ، نقياً ، مخلصاً ، صالحاً ، مصلحاً . . ويكون فى الآخرة ، سعيداً ، منعما ، جامعاً ، بين النعيم والحسى الجسدى ، والنعيم الروحى العقلى . .

الثانية : الإخراج من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور التوحيد

---

(١) سورة المائدة . . الآيتان ٤٨ ، ٤٩ . .

(٢) سورة البقرة . . الآيات : ٢ - ٥ . .

(٣) سورة المائدة : الآيتان ١٥ ، ١٦ . .

الخالص . . حيث يصبح الإنسان حرا كريماً بين الخلق ، عبداً خاضعاً بين يدى الخالق وحده . .

الثالثة : الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين ، فى أقرب وقت ، لأنه طريق لا عوج فيه ، ولا انحراف ، فيبطئ سالكه ، أو يضل فى سيره . .

وهو أن يكون الاعتصام بالقرآن الكريم ، على الوجه الصحيح الذى أنزله الله تعالى لأجله . . بأن تكون عقائده ، وآدابه ، وأحكامه ، مؤثرة فى تزكية النفس ، وإصلاح القلوب ، وإحسان الأعمال . . وثمرة ذلك سعادة الدنيا والآخرة ، بحسب سنن الله فى خلق الإنسان [1] ؟ !

والقرآن الكريم . . هو وحده القادر على تنظيم علاقة الإنسان بنفسه ، وبعالمه الداخلى . .

والقرآن الكريم هو وحده القادر على تحديد علاقة الإنسان بالوجود كله .

والقرآن الكريم . . هو وحده القادر على أن يرسم للمجتمع الإسلامى ، الخطوط السليمة . . ويضع له الحوافظ التى تحفظ الإنسانية من التردى والهلاك . .

والقرآن الكريم . . هو وحده الذى توجد فيه الحلول المنطقية المقبولة لكل ما وراء الحواس . . والقرآن الكريم . . غنى بكل جوانب

(١) تفسير المنار . الجزء السادس ص ٣٠٥ . .

الحياة . . الروحية ، والعقلية ، والجسمية . .

والقرآن الكريم . . هو وحده القادر على إذكاء روح الأخوة الإسلامية ، وتدعيم المحبة بين المسلمين . .

ومادام القرآن الكريم يعمل على وحدة الصف الإسلامى فلا غرو أن يأمر الله المسلمين . . إن دب بينهم نزاع بأن يرجعوا إلى كتاب الله . .

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعو الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » [1] .

فالرجوع عند التنازع فى أى أمر إلى كتاب الله ، وسنة رسول الله . . شرط فى الإيمان . . وذلك كله خير محض لا شر فيه أبدا .

والمسلمون إخوة بنص القرآن الكريم . . قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » [2] .

وأخوة فى الدين والحرمة لا فى النسب . . ولهذا قيل إخوة الدين أثبت من أخوة النسب ، فإن اخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب[3] .

وأخوه الدين أحق ، وأجدر أن يهتم لها ، ويصلح بين المتخاصمين من المؤمنين ، لأنها أخوة بنص كتاب الله تعالى . .

والله سبحانه وتعالى هو الذى عقد هذه الأخوة من فوق سبع

---

(١) سورة النساء آية ٥٩ . .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن . للقرطبى ج ١٦ ص ٣٢٢ . .

سموات ، وما عقده الله تبارك وتعالى لا تحله يد بشر ، مهما قويت ، وسطت ، وظلمت .ومن عجيب أمر هذه الأية الكريمة ، أنها جاءت وكأنها قررت أمرا واقعا مفروغا منه ، لا يرد ولا يصد . . فقالت : « إنما المؤمنون أخوة » . .

هكذا حكم لله ، وهكذا أخبر عن هذا العقد ، الذى ربطه فى السماء بين المؤمنين ، مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينت لغاتهم ، وتباعدت أقطارهم ، وتناءت ديارهم . . فهم أخوة ، تجمعهم عقيدة خالدة ، ورسالة واحدة . .

وهكذا جاءت الجملة خبرية ، لتقرر واقعا عظيما ، وتخبر عنه . . فقالت : « إنما المؤمنون أخوة » . . ولم تأت الجملة إنشائية . . إذ لو جاءت الآية انشائية . . لكانت الأخوة غير موجودة . .

ولكنه عز وجل ربط قلوب المؤمنين برباط واحد ، وعقد هذا الرباط ، ثم أخبر عن هذه الحقيقة الثابتة الواقعة ، وقضى فيها بحكمه فقال : « إنما المؤمنون أخوة » . . ثم ثنى بتقرير هذه [illegible] [illegible]سول الله ﷺ حين قال : « المسلم أخو المسلم أحب أم كره ».

كما قال عليه الصلاة والسلام :

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتطاول عليه فى البنيان ، فيستر عنه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره » . . وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى ﷺ : قال :

« المؤمن مرآة المؤمن ، المؤمن أخو المؤمن ، يكف عنه ضيقه ، ويحوطه من ورائه » .

وهكذا فهم الصحابة الكرام هذه الأخوة ، وعاشوا فيها ، ولها ، وأصبحوا بفضل الله تعالى إخوانا ، دعوتهم واحدة ، وأمرهم واحد ، تقاسموا الحب فيما بينهم ، وآثروا إخوانهم على أنفسهم فقاسموهم الأموال ، ووصلوا إلى درجة من الإيثار ، أن يقول الصاحب لصاحبه . . هذا مالى جعلته بينى وبينك . وهاتان زوجتاى ، اختر أيتهما تشاء ، لتتزوجها أنت [1] .

والأخوة فى الإسلام . . أسلوب تربوى بناء . . يسمو بالمجتمع . . ويصل به إلى مراقى الفلاح . .

وأثار الأخوة . . تبدو واضحة ، فى تعاون المسلمين وحبهم للقرآن ، ولرسالة الإسلام . .

وسوف يبقى المسلمون فى أشد الحاجة إلى الأخوة لأنها سياج يقى المجتمع من التعثر ، والتبعثر ، والأمة الإسلامية تحتاج إلى الإخاء الكامل الذى لا يعرف الحزبية . . ولا العصبية . . ولا القومية . . ولا الاقليمية . . ولا اليمين . . ولا اليسار . . ولا المذاهب الوضعية . .

وقد أتم الله للمسلمين . . وحدة الأصل . . ووحدة العقيدة . . ووحدة المصدر . ووحدة الشعور . ووحدة الصف . .

---

(١) راجع : نظرات فى سورة الحجرات ص ١٠٧ ، ١٠٨ . للشيخ الصواف مطبعة الرسالة بيروت .

وكانت أثار ذلك واضحة فى . .

الحب فى الله . . والتعاون . . والتكامل . . والمساواة . . والعدل . . والشورى . . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ومن هذا المنطلق . . كانت الأمة الإسلامية تملك رصيدا ضخما . . يمكن استثماره لتحقيق الإخاء المتكامل . .

الإخــاء الإنســـانى

اهتم الإسلام بالإنسانية . . ووضع لها قواعد الإخاء . والتعاون ، والتبادل . .

والإسلام جاء ليقيم بين البشر جميعا رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر جميعا بالله . .

وهذا الإتجاه الإنسانى ظاهر فى تعاليم الإسلام وتوجيهاته . . ومحمد رسول الله ﷺ . . قد وضع الأصول الأساسية فى بناء دولة الإسلام . . وليعيش فيها الناس ، على خير ما يرجى . .

إن العدل فى العلاقات الإنسانية . . قاعدة عامة فى الإسلام ، سواء بين المسلمين ، أو بينهم وبين غيرهم ، حتى فى حالات العداوة . .

قال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (١) .

والعلاقة مع غير المسلمين إذا لم يكونوا محاربين . . هى ليست عدالة فحسب . . بل علاقة بر . . بكل ما فى كلمة بر من مفهوم

(١) سورة المائدة الآية رقم ٨ .

ومدلول ومعنى . .

قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

والإلتزام بالكلمة فى نظر الإسلام . . دليل صدق الإيمان . . أما الكلمة المهتزة . . فإنها دليل ضعف الإيمان .

لذلك اعتبر الإسلام الكذب نفاقا ، وخلف الوعد نفاقا ، ونقض العهود بدون مبرر نفاقا ، والغدر نفاقا . . كل ذلك نفاق عملى . . يأباه الإسلام ، ولا يقبله . .

والوفاء بالعهود والعقود . . أمر واجب . . لا يجوز التهاون فيه . .

قال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون » (١) .

والوفاء : لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ، ويلتزمه الإنسان من بيع أوصلة ، أو مواثقة فى أمر موافق للديانة (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن النبى ﷺ قال : «أربع

---

(١) سورة النحل الآية ٩١ . .

(٢) أحكام القرآن لقرطبى ج ١٠ ص ١٦٩ .

من كن فيه ، كان منافقا خالصا ، ومن كان فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها . إذا ائتمن خان . وإذا حدث كذب . وإذا عاهد غدر . وإذا خاصم فجر »[1] . .

وعن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب »[2] . .

ولقد عقد الرسول ﷺ ، كثيرا من المعاهدات ، وكان أوفى الناس بها . .

وكان لابد من المعاهدات لتأمين الدولة الإسلامية . . وبناء دولة الإسلام » . .

ومن تلك المعاهدات . . المعاهدة التي عقدها الرسول ﷺ ، مع اليهود ، حين هاجر إلى المدينة . .

والمبادىء التي تضمنتها نصوص المعاهدة . . تنبىء عن حرص الإسلام . . على السلام الإنساني . .

وهذه المعاهدة جاءت بأسلوب يشتمل على المعنى الأصلي لهذا السلام :

١ – وحدة الأمة المسلمة من غير تفرقة بينها . .

٢ – تساوي أبناء الأمة جميعا في الحقوق ، والكرامة : « لا يجير أدناهم على أعلاهم » . .

(١) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٥٩٣ والحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي . .

(٢) الترغيب والترهيب الجزء الثالث ص ٥٩٥ . .

٣ – تكاتف الأمة كلها دون الظلم ، والإثم ، والعدوان ، والفساد ، كائنا من كان الظالم والمفسد » . .

٤ – اشتراك الأمة فى تقرير العلاقات ، مع أعدائها ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن . .

٥ – تأسيس المجتمع على أحسن النظم ، وأهداها ، وأقومها . .

٦ – مكافحة الخارجين على الدولة ، ونظامها العام ، ووجوب الإمتناع عن نصرتهم . .

٧ – حماية من أراد العيش مع المسلمين ، مسالما ، متعاونا ، والإمتناع عن ظلمهم ، والبغى عليهم . .

٨ – على غير المسلمين أن يساهموا فى نفقات الدولة كما يساهم المسلمون . .

٩ – لغير المسلمين دينهم وأموالهم . . لا يجبرون على دين المسلمين . . ولا تؤخذ منهم أموالهم . .

١٠ – على غير المسلمين فى الدولة الإسلامية ، أن يتعاونوا مع المسلمين ، لدرء الخطر عن كيان الدولة ضد كل عدوان . .

١١ – على غير المسلمين . . أن يشتركوا فى نفقات القتال ، ماداموا محاربين . .

١٢ – على الدولة أن تنصر من يظلم منهم . . كما تنصر كل مسلم يُعتدى عليه . .

١٣ – على المسلمين وغيرهم ، أن يمتنعوا عن حماية أعداء الدولة ،

ومن يناصرهم . .

١٤ – إذا كانت مصلحة الأمة فى الصلح ، وجب على أبنائها مسلمين ، وغير مسلمين . . أن يقبلوا بالصلح . .

١٥ – لا يؤاخذ أى إنسان بذنب غيره . . ولا يجنى جان إلا على نفسه . .

١٦ – حرية الإنتقال فى داخل الدولة وإلى خارجها مصونة بحماية الدولة . .

١٧ – لا حماية لآثم ، ولا لظالم . .

١٨ – المجتمع يقوم على أساس التعاون على البر ، والتقوى لا على الإثم والعدوان . .

١٩ – هذه المبادىء تحميها قوتان :

قوة معنوية . . وهى إيمان الشعب بالله ، ومراقبته له ، ورعاية الله لمن بر ، ووفى . .

وقوة مادية . . وهى رئاسة الدولة التى يمثلها محمد رسول لله ﷺ . . [1] .

هذه العلاقة بين المسلمين وغيرهم لمن يدينون بأديان أخرى . . قد لقيت من الإسلام ، مزيدا من الإهتمام . .

وهذا عهد رسول الله ﷺ لأهل نجران وقد كانوا نصارى . .

« ولنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله . .

---

(١) انظر : دين الإسلام للأستاذ مصطفى السباعى ص ٣٤٢ . ٣٤٣ . .

على أموالهم . . وأنفسهم ، وملتهم ، وغائبهم ، وشاهدهم ، وعشيرتهم ، وبيعتهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . . ولا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته . .

وليس عليهم دية . . ولا دم جاهلية . . ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ، ولا مظلومين »[1] . .

وكان يوحنة بن رؤبة . . صاحب أيلة ، أحد الأمراء المقيمين على الحدود . .

ولقد وجه رسول الله ﷺ ، إليه رسالة ، فاقبل يوحنة ، وعلى صدره صليب من ذهب . .

وقدم الهدايا ، والطاعة ، وصالح رسول الله ﷺ كما . . صالحه أهل الجرباء وأذرع[2] . . وكتب لهم رسول الله ﷺ ، كتاب أمن . . جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ، ليوحنة بن رؤبة ، وأهل أيلة سفنهم . وسياراتهم في البر والبحر . . لهم ذمة الله ومحمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر . .

فمن أحدث منهم حدثا ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه . . وأنه

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ للأستاذ محمد حميد الله الحيدرى

(٢) الجرباء وأذرع : قرى على حدوى الشام . .

طيب لمحمد أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر »[1] .

وهذا عهد الحديبية . . يضعه رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وبين مشركى قريش وغيرهم . .

يقول عنه ابن اسحاق . .

ثم دعا النبى ﷺ ، على بن أبى طالب فقال : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . .

قال : فقال سهيل : لا أعرف هذا . . ولكن اكتب : باسمك اللهم . . فكتبها . .

ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . .

قال : فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك . . ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

قال : فقال رسول الله ﷺ : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . . سهيل بن عمرو . .

١ - اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض . .

٢ - على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ، رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد ، لم يردوه عليه . .

(١) حياة محمد . . للدكتور محمد حسين هيكل ص ٤٥٩ . .

٣ – وأن بيننا عيبة مكفوفة [١] . . وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده ، دخل فيه . . ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه . .

٤ – وأنك ترجع عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة .

٥ – وأنه إذا كان عام قابل ، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك . . فأقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب . . السيوف فى القرب لا تدخلها بغيرها فلما فرغ رسول الله ﷺ ، من الصلح أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ، ورجالا من المشركين [٢] .

وروى عن ميمون بن مهران . . قال : ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء » .

من عاهدته ، فوفى بعهده مسلما كان أو كافرا فإنما العهد لله » .

ومن كانت بينك وبينه رحم ، فصلها مسلما كان أو كافرا . . ومن أئتمنك على أمانة فأدها مسلما كان أو كافرا [٣] .

ولقد ضرب رسول الله ﷺ ، المثل الأعلى فى الوفاء بالعهود . .

ومن ذلك . . بينا رسول الله ﷺ ، يكتب الكتاب – فى صلح الحديبية – هو وسهيل بن عمرو . . إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو . . يرسف فى الحديد . . قد انفلت إلى رسول الله ﷺ . .

---

(١) عيبة : أى موضع السر . . ومكفوفة : أى مطوية والمراد : معاهدة مطلوب الوفاء بها

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٣٢٠ . .
وسيرة النبى لابن هشام ج ٣ ص ٧٨٢ . .

(٣) تفسير المنار . الجزء العاشر ص ٥٩ . .

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح ، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ .

فلما رأوا ما رأوا من الصلح ، والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله ﷺ ، فى نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم . . حتى كادوا . يهلكون . فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه ، وأخذ بتلابيبه . . ثم قال : يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك ، قبل أن يأتيك هذا . .

قال : صدقت . .

فجعل ينتره بتلابيبه ، ويجره ليرده إلى قريش [1] .

وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم . .

فقال رسول الله ﷺ : يا أبا جندل : اصبر ، واحتسب . فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك . . وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم [2] .

كل ذلك مراعاة للإنسانية ، وحرصا على الوصول بها إلى الكمال . . ويحرص الإسلام على هداية الناس أكثر من الحرص على

(١) فجعل ينتره : أى يجذبه بشدة .
التلابيب : طوق الثوب .
(٢) سيرة النبى لابن هشام . الجزء الثالث ص ٧٨٣ .

تحقيق نصر حربى ، تنقل فيه الغنائم والأسلاب . .

وكان من هدى رسول الله ﷺ ، كلما بعث بعثا ، أو أرسل سرية . . أن يوضح لهم الهدف ويبين لهم الخطوات . .

ومن ذلك . . « تألفوا الناس ، وتأنوا بهم ، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم . .فما على الأرض من أهل بيت من مدر ، ولا وبر ، إلا أن تأتونى بهم مسلمين ، أحب إلى من أن تأتونى بأبنائهم ، ونسائهم ، وتقتلوا رجالهم »[1] .

وهكذا يثبت الإسلام ، حرصه الشديد على الإنسانية وعلى هدايتها إلى طريق الحق . .

إن الإسلام دين المسالمة مع المسالمين . لم يحارب إلا من أجل الحق ، ونصرته ، وتكريم الإنسانية ، وحريتها . .

يدعو بالحكمة ، والموعظة الحسنة . . ويعيش فى كنفه الأصدقاء ، ويستمتع بعدله كل الناس ما وفوا بالعهد ، وكانوا مسالمين » .

وكتب رسول الله ﷺ إلى عمرو بن حزم [2] ، أوصاه فيه . . بتقوى الله فى أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . وأمره أن يأخذه بالحق كما أمره الله . . وأن يخبر الناس بالذى لهم ، والذى عليهم ، ويلين للناس فى الحق ، ويشتد عليهم فى الظلم فإن الله كره الظلم ، ونهى عنه ، فقال : « **ألا لعنة الله على**

---

(١) شرح السير الكبير : للسرخسى الجزء الأول ص ٥٩ . .

(٢) عمرو بن حزم : رسول رسول الله إلى بنى الحارث باليمن .

الظالمين » . . وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاما خالصا من نفسه ، ودان بدين الإسلام ، فإنه من المؤمنين ، له مثل مالهم ، وعليه مثل ما عليهم . . ومن كان على نصرانيته أو يهوديته ، فإنه لا يرد عنها » [1] .

وتعاليم الإسلام الإنسانية ، تظهر حتى فى معاملة العدو المحارب . .

فقد ورد فى وصية الرسول ﷺ للجيش . . وهى كذلك مروية عن أبى بكر فى خلافته : « لا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا شيخا ، ولا امرأة ، ولاطفلا . . وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقطعوا شجرة ولا تقتلوا حيواناً إلا للأكل . . » [2] .

إن هذا يدل على أن الأصل فى الإسلام كرامة الآدمى مطلقا ، ومسالمته ، والإحسان إليه .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « ومن آذى معاهدا فقد آذانى ».

وفى رواية : « فأنا خصمه يوم القيامة » وهكذا يبنى الإسلام الدولة على أسس قوية من الإخاء الإنسانى . . الذى يجمع ولا يفرق ، ويبنى ولا يهدم . .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام . الجزء الرابع ص ١٠١٥ .

(٢) استراتيجية العالم الإسلامى ص ١٠١ مكة المكرمة وزارة الحج والأوقاف . مجموعة محاضرات . .

إعـــداد القـــوة

الإسلام دين أحيا الله به قلوبا أماتتها الشهوات . . وأنقذ به عقولا ، سممتها الشكوك والشبهات ، وأحل به من الأغلال ، أفكارا قيدتها الخرافات ، وسجنتها التخرصات . . وجدع به أنوفا شمخت بها الجاهلية الجهلاء . .

وهو دين يحبب فى الحياة ولا يزهد فيها . . وينشط للعمل ، ويحرص على استصلاح المعيشة . . ويحث على طلب العلم ، ويدعو لاحترامه ، واستثماره . .

وهو دين العقيدة الرائقة ، التى تطهر النفس ، وتزكى القلب ، وتربى الخلق ، وتغذى العقل ، وتوقف الغريزة عند حدها ، وتعطى كل مطمح من مطامح الإنسان ، معناه الذاتى وسيره الطبيعى . . . والإسلام عقيدة استعلاء . . تبعث فى روح المؤمن الإحساس بالعزة من غير كبر ، وروح الثقة من غير اغترار . .

وهى كفيلة بتعديل القيم والموازين . . والحكم والتقدير . . والنهج والسلوك . . والوسائل والأسباب . . والإسلام بجانب هذا . . دين المسالمة مع المسالمين ، والردع للمعادين . . نور يهدى ، ونار تحرق

الطغاة الآثمين . . يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة . . فإذا جد الجد . . كان الصخرة التي يتحطم عليها كل جبار عنيد . . ويطلب من المسلمين : أن يكونوا على حذر في وقت السلم . . حتى لا يؤخذوا على غرة . .

ويدعو المسلمين : إلى الاستشهاد من أجل عزة الإسلام . .

ولا يعدل الجهاد في سبيل الله . . مال ، ولا ولد ، ولا والد ، ولا عشيرة ، ولا أهل . .

والدفاع عن العقيدة والبلاد الإسلامية . . من اسمى أهداف الإسلام

ولهذا كله قال الله تعالى : «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**[1] »

فالإستعداد بما في الطوق . . فريضة الجهاد في سبيل الله . . والإسلام يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وأسبابها . .

قوة العقيدة لأنها أسس الفضائل ، وقوام الضمائر ، وسداد العزائم في الشدائد وبلسم الصبر عند المصائب ، وعماد الرضا والقناعة . . ونور الأمل في الصدور . . وسكن النفوس إذا أوحشتها الحياة . . وعزاء القلوب إذا نزلت بالإنسان نازلة . . والأمة الإسلامية في هذا العصر ،

(١) سورة الأنفال . الآية رقم ٦٠ .

الذى تكالبت فيه قوى الإلحاد ، والمذاهب الهدامة فى أشد ما تكون إلى قوة العقيدة . . وبالعقيدة القوية . . نستطيع أن نواجه تحديات العصر المسعورة من : شيوعية . . وغيرها من ألفاظ قاموس الفكر الإلحادى . .

وقد تعلمنا من المعارك التى خاضها المسلمون ، وانتصرت فيها الجيوش الإسلامية . . سواء فى غزوة بدر ، أو القادسية ، أو اليرموك ، أو حطين ، أو عين جالوت ، أو العاشر من رمضان . . إن الوسائل المادية ليست وحدها هى التى تفصل فى المعارك . .

ولا يوجد ما يصون الإستعداد العسكرى إلا العقيدة . . لأنها هى التى تربط القلوب بالله ، وتصل قوة المجاهدين بالقوة الكبرى التى لا تغلب . .

ولو انتظر المسلمون فى غزوة بدر الكبرى ، حتى تتكافأ قوتهم ، وقوة خصومهم . . ما قامت للمسلمين قائمة . . إنما القلة المؤمنة بعقيدتها . . استعدت بقدر ما استطاعت . . ثم خاضت المعركة . . فكان فيها الفرقان . .

قال تعالى : « **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون** [1] » .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم

---

(١) سورة التوبة الآية : ٢٠ .

وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين[1] »

وفى هذه الآية . . ينادى رب العزة الذين آمنوا . . وخطاب المؤمنين بصيغة (الذين آمنوا) هو أمثل أنواع الخطاب ، إبانة لحقيقتهم هذا بجانب ما ينطوى عليه من الدلالة على السمو والفضل . . وفى النداء : « يأيها الذين آمنوا . . » زيادة إيناس ، وتكريم للمؤمنين بعقيدتهم وأحب شىء إلى الإنسان هو : أن تناديه بما يدل على تكريمه . .

والله سبحانه وتعالى يشعر بهذا النداء المؤمنين ، بأنه يخاطب أقرب الخلق إليه . . فما فى الإنسان شىء أقرب إلى الله ، من الإيمان به . .

والله سبحانه وتعالى ، حينما يتوجه إلى المؤمنين من خلال إيمانهم بصيغة فعل الأمر . . مثل قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أو بصيغة النداء مثل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا . . » يكون التالى . . تعليما بموجبات هذا الإيمان ، وحثا على القيام بها ، فى أى شأن من الشئون ، وفى أى درب من ضروب الحياة

ومن هذا ندرك أن الإسلام قد انطوى على طاقة فعالة ، جعلت منه قوة هائلة . . بل إن فاعلية الإسلام ، شملت حياة المسلمين فى جميع جوانبها . . فما أجدر أبناء الأمة الإسلامية . . أن يهتموا بتعاليم

---

(١) سورة الصف الآيات ١٠ إلى ١٣ .

الإسلام ، وآدابه . . ويتمسكوا بما جاء به من توجيهات وإرشادات . . وللأمة الإسلامية فى عقيدتها قوة لا تدانيها قوة ، فى القضاء على تخريف الملاحدة ، وسماسرة الشيوعية [1] .

والله سبحانه وتعالى ، يعلم أن هذه الأمة الإسلامية لن تجد الطريق ميسرة لها ، وممهدة لنشر مبادئها ، ويعلم أن الباطل ، من دأبه أن يزداد شراسة ، وتنمرا . . كلما وجد الحق يتألق نجمه ، وتعلو كلمته . . محاولاً القضاء على الحق ، وأهله ، فى غير مبالاة لعهد ، أو قرابة ، أو إنسانية . . وحينئذ لا بد أن يتخذ أهل الحق عدتهم ويحموا أنفسهم ودينهم . . ولذلك أمر الله الرسول ﷺ ، وأمته بالاستعداد الدائم ، والرباط المستمر . . تلبية لأية إشارة ، واستجابة لأول دعوة إلى الجهاد [2] . . والتاريخ العربى قبل الإسلام . . حافل بذكر أقاصيص الحروب ، التى كانت تنشب بين القبائل العربية كحرب « البسوس » ، وحرب « داحس » وحرب « الغبراء » وغيرها على النحو الذى أصبحت معه تلك الحروب ، من خصائص المجتمع العربى ، فى العصر الجاهلى . .

وكان الدافع لشن تلك الحروب . . الرغبة فى المغامرات ، طلبا لمغنم . . أو تحقيقا لزعامة . . أو طلبا لثأر . . أوردا لاعتبار . . أو نزعة

---

(١) انظر مقالنا من وحى الإسلام بمجلة الجندى المسلم العدد العاشر السنة الثانية ١٣٩٥ هـ . الرياض السعودية .

(٢) مكتبة الإمام ع ٥ ص ٢٧ وزارة الأوقاف المصرية .

حيوانية . . على أن هذه الأنماط من الحروب ، ذات الطبيعة الاعتدائية . . باتت تتغير . . وتنحصر . . مع انتشار العقيدة الإسلامية ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا . . حيث أن المسلمين أنفوا أن يتخذوا من الحروب وسيلة للإيذاء ، وأداة للثأر ، والاعتداء . . وانما الظروف القاسية ألجأت المسلمين إلى تكثيف القوى ، وتجميع الطاقات . .

وذلك أن قوى الشر والضلال . . تعمل فى هذه الأرض . . والمعركة مستمرة بين الخير والشر . . والصراع قائم بين قوى الإيمان ، وقوى الطغيان . . منذ خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان فى هذا الوجود . . والشر جامح . . والباطل مسلح . . وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع . . فلابد للخير والحق من قوة تحمى من البطش ، وتقى من الفتنة ، وتحرس من الأشواك والسموم . . ولم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يترك الإيمان ، والحق ، والخير ، دون قوة . . تكافح قوى الطغيان والشر ، والباطل ، والإلحاد . .

لأن القوة التى يملكها الباطل ، قد تزلزل القلوب ، وتفتن الناس ، وتزيغ النظر . . ولهذا أمر الله المسلمين بإعداد القوة ، فقال تعالى : «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وماتنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون**[1] » . .

(١) سورة الأنفال . آية رقم ٦٠ .

وعندئذ أذن الله للمسلمين فى القتال . . قال تعالى : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق**[1] » .

والقتال فى الإسلام . . جعل من أجل غرضين أساسيين :

الغرض الأول : الدفاع عن النفس عن الاعتداء عليها ، والدفاع عن الأرض والبلاد التى يعيش المسلمون فيها . .

الغرض الثانى : الدفاع عن الدعوة الإسلامية ، والتعاليم الإلهية حماية لحاملى مشعلها ، وافساح الطريق أمام الدعوة ، ورسالة الحق . . ولم يشرع القتال فى الإسلام . . لتثبيت ملك ، أو توسيع سلطان ، أو الغلبة ، والقهر ، أو استعباد الشعوب ، واستنزاف خيراتها . . ولو ترك المشركون يعتدون على المسلمين ، ويقاومون الدعوة ، ويصدون الناس عن الدخول فى دين الله . . ولو لم يشرع القتال . . لطغى الباطل على الحق ، وتضررت البلاد ، وطمست معالم الدعوة الإسلامية . .

ولولم يشرع القتال . . لبقى العالم من أقصاه إلى اقصاه . . يئن ويرزح تحت وطأة الجهل ، والظلم ، والاستعباد . .

وشعار الحروب الإسلامية . . الحرص على السلام ، ، والأمن لجميع بنى الإنسان فى هذا الوجود . . ومن هنا صار الجهاد بوجه عام ، مبدأ من مبادىء الإسلام التى أخذت مكانتها بين عقائده وفروعه واستقرت دعوة القرآن ، إلى الجهاد على عمومه متعلقة بذمة

---

(١) سورة الحج الآية ٣٩ ، ٣٠ .

المسلمين ، جماعة ، وأفرادا[1] ويقول صاحب البصائر[2] : الجهاد : الطاقة ، والمشقة ، وقيل بالفتح : المشقة . . وبالضم : الوسع . . وقيل الجهاد : ما يجهد الإنسان . .

قال تعالى فى سورة التوبة : «وأقسموا بالله جهد إيمانهم» أى حلفوا واجتهدوا فى الحف ، أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم . . . والاجتهاد : أخذ النفس ببذل الطاقة ، وتحمل المشقة فى العبادة . . يقال : جهدت رأيى واجتهدت : أتعبته بالفكر ، والجهاد ، والمجاهدة : استفراغ الوسع فى مدافعة العدو . .

قال ﷺ : «المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله[3] »

وكان عليه الصلاة والسلام ، إذا رجع من الغزو .

يقول : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر[4] »

قال الشاعر العربى :

يا من يجاهد غازيا أعداء دين
الله يرجو أن يعان وينصرا

هل غشيت النفس غزواً إنهـا
أعدى عدوك كى تفوز وتظفرا

---

(١) سبل السلام . للصنعانى ، الجزء الرابع ص ٥٤ .

(٢) صاحب البصائر : هو الفيروزابادى . . صاحب بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز وقد قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعة وبصيرة الجهاد . . فى الجزء الثانى ص ٤٠١ . .

(٣) رواه الترمذى وابن حيان كما فى الجامع الصغير . .

(٤) إحياء علوم الدين . . للغزالى الجزء الثالث .

مهما عنيت جهادها وعنادها
فلقد تعاطيت الجهاد الأكبرا

وقال آخر فى الجهد، ومعنييه :

تعاليت عن قدر المدائح صاعداً
فسيان عفو القول عندك والجهد

وإنى لأدرى أن وصفك زائد
على منطق لكن عن الوصف الجهد

وإنى قليل القول يكثر وقعه
إذا عرفت فيه المولاة والود

وقد يطلق الجهاد، ويراد به معنى يشمل القتال وغيره، كالجهاد بالمال، فى قوله تعالى : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون »[1] .

ومثل الجهاد بالكلمة منطوقة أومكتوبة . . كجهاد الكافرين والمنافقين . . المذكور فى قوله تعالى : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير »[2] .

ومنه جهاد النفس، كما فى قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين »[3] .

(١) سورة التوبة اية رقم ٢٠ .
(٢) سورة التحريم الآية ٩ ، وسورة التوبة الآية رقم ٧٣ . .
(٣) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

فإن السورة مكية ، ولم يفرض قتال فى مكة ، وهذا المعنى للجهاد ، هو المعنى العام المأخوذ من المعنى اللغوى الذى هو : بذل الجهد والطاقة . .

وقد ورد لفظ الجهاد فى القرآن الكريم ثلاثين مرة ، وورد كثيرا بلفظ القتال ، المرادف له ، وكلاهما يرد أحيانا مقرونا بسبيل الله . .

والأمة الإسلامية فى حاجة إلى استيقاظ كل الخلايا فيها ، واحتشاد كل قواها وتوفر كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها . .

ومن الواضح أن كلمة قوة ، والتى جاءت فى آية سورة الأنفال التى تأمر باعداد القوة . .

كلمة قوة هذه ، جاءت نكرة عامة ، أتدرى لم ذلك ؟

لتشمل إعداد القوة بما يتناسب مع التقدم العلمى ، فى كل مجالات الحياة . .

وتفيد الآية أن إعداد القوة هو مايتفق مع استطاعة الأمة الإسلامية . .

فلايستساغ أن ينتظر المسلمون ريثما يتم إعداد قوة تكافىء قوة العدو . . لأن ذلك قد يطول وقد خطب عبد الله بن رواحة فى جنده ، يشجعهم على لقاء العدو حينما فزعوا ، من كثرة عدده ، وعدده ، فى غزوة مؤتة . . فقال :

« ياقوم إن التى تكرهونها لهى الشهادة التى خرجتم تطلبونها ، والله ماكنا نقاتل الناس بكثرة عدد ، ولابكثرة سلاح ، ولابكثرة خيول .

مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به .

انطلقو . . فوالله لقد رأيتنا يوم بدر مامعنا إلافرسان . . ويوم أحد مامعنا إلافرس واحد . . انطلقوا . . فإنما هى إحدى الحسنيين . .

إما ظهور عليهم فذلك ماوعدنا الله ورسوله ، وليس لوعده خلف . .

واما الشهادة فنلحق بالاخوان ، نرافقهم فى الجنان (1) . .

وروى الواقدى ، عن أبى هريرة . . قال : « شهدت يوم مؤتة . . فلما دنا المشركون منا رأينا مالاقبل لأحد به من العدة ، والسلاح ، والكراع ، والحرير ، والديباج ، والذهب . .

فبرق بصرى . . فقال لى ثابت بن أرقم : ياأباهريرة كأنك ترى جموعا كثيرة ؟ . .

قلت : نعم . قال : إنك لم تشهد بدرا معنا . . إنا لم ننتصر بالكثرة (2) . .

والأمثلة من واقع صفحات التاريخ الإسلامى كثيرة ، وكلها تشهد لجنود الجيش الإسلامى ، بالصدق والإيمان ، فما كانوا يرهبون الردى ، يقدمون غير هيابين ، ولا وجلين ، على حد القائل :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً   على أى جنب كان فى الله مصرعى

---

(1) صور من حياة الرسول ص ٥١٧ .

(2) صور من حياة الرسول ص ٥١٦ . .

فلم ينظروا إلى كثرة جنود الأعداء . . ولم يعرفوا كم أعد الأعداء من العدد . . وفى الوقت نفسه كان لهم من إيمانهم بالله ، وثقتهم فى النصر ، كان لهم من ذلك ، مايدفعهم إلى الإقدام . .

وهم على حد قول الفيلسوف محمد إقبال الشاعر الباكستانى :

كنا جبالاً فى الجبال وربما سرنا على موج البحار بحارا
كنا نقدم للسيوف صدورنا لم نخش يوما غاشما جبارا
بمعابد الإفرنج كان أذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس أفريقيا ولاصحراؤها سجداتنا والأرض تقذف نارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة تنبت من حولنا الأزهارا

وأمتنا الإسلامية . . فى أشد ماتكون . . إلى بطولة الأبطال ، وحزم الرجال . .

إن الأمة الإسلامية . . فى حاجة إلى جيش إسلامى ، يعد إعدادا إسلاميا ، خاصا . .

وبهذا يمكن أن نتصدى لكل محاولات الأعداء ، حتى ولوكانت من الداخل ، وماأكثر محاولات الأعداء . . فالأحزاب البعيدة عن الإسلام ، والتى تحكم بعض شعوب البلاد الإسلامية . . يمكن أن تشكل خطرا جسيما ، وبخاصة بعد تحالفها مع الأحزاب الشيوعية . .

والأنظمة المستبدة ، يمكن أن تشكل خطرا ، والأفكار المستوردة يمكن أن تكون أشد خطرا . .

وهناك من الفوضويين ، والمتمردين ، والوصوليين ، مايسىء إلى البلاد الإسلامية . .

ولهذا . . وغير هذا ، كان على الأمة الإسلامية أن تفكر جديا ، فى أمر البلاد الإسلامية ، وإنقاذ شعوبها من قسوة الأحزاب المستبدة والأفكار الحمراء . .

إن الشعوب تئن وتتوجع . . ولايصح أن نرى المد الإسلامى ينحسر . . ونقف مكتوفى الأيدى . . أونزيد من الحوقلة . . أونقف موقف اللامبالين ، إن شئون المسلمين . . تنادى المسلمين : أين مكانكم . . وأين أنتم . . ؟ ؟

إن الأمر بالإعداد . . يجب أن يستمر ، ولايتوقف ورسول الله ﷺ . . لم يتوان ، ولم يتمهل فى إعداد المسلمين إعدادا يتفق مع بناء دولة الإسلام القوية . .

فكان المسلمون . . أقوياء فى عقيدتهم ، أقوياء فى إيمانهم ، أقوياء فى فكرهم ، وثقافتهم وأخلاقهم وتربيتهم . .

منهج دولة الإسلام

دولة الإسلام الجديدة تحتاج إلى منهاج ترسم خطاه . . ودستور يبين الطريق الذى يسير عليه الأفراد والجماعات . .

والمنهاج لايصح أن يكون من وضع الناس . . لأن وضع البشر مدعاة للخلاف والإضطراب . . وماترتضيه جماعة من الجماعات . . لايتفق مع آخرين . . ومايصلح فى هذا الجزء . . لايصلح فى جزء آخر . .

لهذا جاء دستور دولة الإسلام . . يستمد مبادئه من القرآن الكريم ، والسنة النبوية . .

قال تعالى : « ياأيها الذين امنو أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً »[1] ! . .

فما من قضية كائنة ماكانت إلاوحكمها فى كتاب الله عز وجل ، وسنة الرسول ﷺ ، نصا ظاهرا ، أواستنباطا . . وذلك أن الله سبحانه وتعالى الذى خلق البشر ، وخلق الزمان والمكان . . راعى فى

(١) سورة النساء . . الآية رقم ٥٩ . .

التشريع الأصول المرعية ، والمصالح البشرية . . ولهذا عقب الله سبحانه بأن هذه الأحكام . . كلها خير محض لاشر فيها أبدا . .

ويقول الإمام ابن كثير عقب قوله تعالى : « فلاوربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »[1] . .

يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة ، أنه لايؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ ، فى جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذى يجب الإنقياد له باطنا وظاهرا[2] قال الجصاص : فى هذه الأية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى أوأوامر رسوله ﷺ ، فهو خارج من الإسلام سواء رده من جهة الشك فيه ، أومن جهة ترك القبول والامتناع من التسليم ، وذلك يوجب صحة ماذهب إليه الصحابة ، فى حكمهم بارتداد من أمتنع عن أداء الزكاة ، وقتلهم وسبى ذراريهم . لأن الله حكم بأن من لم يسلم للنبى ﷺ ، قضاءه وحكمه ، فليس من أهل الإيمان[3] . .

وعن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » . .

وهذا الحديث قال عنه النووى . حديث صحيح ، رويناه فى كتاب الحجة باسناد صحيح . .

(١) سورة النساء . الآية رقم ٦٥ . .
(٢) تفسير القرآن العظيم . الجزء الأول ٥٢٠ . .
(٣) الخصائص . . الجزء الثانى ص ٢٦٠ . .

قال الحافظ الإمام ابن رجب رحمه الله ، فى شرح الحديث ، أمامعنى الحديث : فهو أن الإنسان لايكون مؤمنا كل الإيمان الواجب حتى تكون محبته ، تابعة لما جاء به الرسول ﷺ ، من الأوامر والنواهى وغيرها . فيحب ماأمر به ، ويكره مانهى عنه . .

ولقد حرم الإسلام ، الخروج على الشريعة ، واعتبر العامل بغيرها كافرا ، وظالما ، وفاسقا . . والكفر والظلم والفسوق . . خروج عما شرع الله . .

قال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »[1] .

وقال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »[2] .

وقال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »[3] .

وإن تحكيم الشريعة الإسلامية . . ينتج عنه ثبات الأحكام واستمرارها ، ولوتغير الحكام . .

والكتاب والسنة هما المنهج الذى ارتضاه الله ، لسعادة هذه الأمة . .

---

(١) سورة المائدة . الآية رقم ٤٤ .
(٢) سورة المائدة . الآية رقم ٤٥ .
(٣) سورة المائدة الآية ٤٧ . .

قال تعالى : « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » [1] . .

فالله سبحانه وتعالى . . لم يزك هؤلاء المذكورين ، بأنهم على هدى من ربهم . . ولم يكتب لهم الفوز والفلاح إلابسبب مااتصفوا به من إيمان بالقرآن الكريم ، وبكل ماجاء به . .

قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديم إلى صراط مستقيم » [2] .

وقال تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس ؛ بما أراك الله ولاتكن للخائنين خصيما » [3] .

وقال تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » [4] .

وقال تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » [5] .

---

(١) سورة البقرة . الآيات من ٢ . . ٥ . .

(٢) سورة المائدة الآيتان : ١٥، ١٦ . .

(٣) سورة النساء . الآية ١٠٥ . .

(٤) سورة الأنعام الآية رقم ١٥٥ . .

(٥) سورة الجمعة الآية رقم ٢ . .

والعرب كانوا قديما متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه وقلبوه . . واستبدلوا بالتوحيد شركا ، وباليقين شكا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها ، وغيروها ، وأولوها . . فبعث الله محمدا ﷺ ، بشرع عظيم كامل شامل ، لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع مايحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى مايقربهم إلى الجنة ورضاء الله عنهم ، والنهى عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى (١) .

والقرآن الكريم قد بين كل مايهم الإنسانية فى الدنيا وفى الآخرة . .

ومن ثم كان الخروج عما جاء به القرآن الكريم . انحرافا خطيرا . يعرض المجتمع لهزات فكرية ، واجتماعية ، واقتصادية . تصل به إلى الفوضى ، والاضطراب ، والقلق . .

قال تعالى : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين » (٢) .

وقال تعالى : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولاتطغوا إنه بما تعملون بصير ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون » (٣) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٣٦٣ .

(٢) سورة الجاثية الآيتان ١٨ ، ١٩ .

(٣) ورة هود . الآيتان ١١٢ ، ١١٣ .

وتتضافر آيات القرآن الكريم . . فى بيان الحق ، والطريق المستقيم . . حتى لاينخدع الناس بمذاهب الناس ، ومتاهات الفلاسفة والمتفلسفون .

والقرآن هو القرآن . . لايؤخذ بعضه ويترك بعضه . كما لايقبل الخلط مع غيره من القوانين التى تواضع عليها بعض الناس . .

وليفكر العاقل فى أمر الدولة الإسلامية فى عهد الرسول ﷺ ، وفى عهود الخلفاء الراشدين ، وفى الدولة العباسية والأموية وغيرها من عهود ازدهار الحضارة الإسلامية وسوف يجد . . العزة ، والقوة ، والانتصار ، والعلم ، والمعرفة ، والحضارة . .

وذلك بسبب تحكيم شريعة الله التى ارتضاها الله لعباده . .

لغـــة الدولـــة

لغة الدولة الإسلامية . . هى اللغة العربية . . والعربية من أعرق اللغات العالمية منبتا ، وأعزها جانبا ، وأقواها جلادة ، وأبلغها عبارة ، وأغزرها مادة ، وأدقها تصويرا لما يقع تحت الحس ، وتعبيرا عما يجول فى النفس . وذلك لمرونتها على الاشتقاق ، وقبولها للتهذيب ، وسعة صدرها للتعريب . .

نزل القرآن الكريم بلسانها ، فجعلها أكثر رسوخا ، وأشد بنيانا ، وأقوى استقرارا . .

وبفضل القرآن الكريم صارت أبعد اللغات مدى ، وأوسعها أفقا ، وأقدرها على النهوض ، بتبعاتها الحضارية ، عبر التطور الدائم الذى تعيشه الإنسانية . .

واستطاعت فى ظل عالمية الإسلام . . أن تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر ، وترتفع حتى تصل إلى أرق اختلاجات النفس . .

فليس هناك معنى من المعانى ، ولافكراً من الأفكار ، ولاعاطفة من العواطف ، ولانظرية من النظريات ، تعجز اللغة العربية عن

تصويرها بالأحرف والكلمات ، والمفردات والجمل ، تصويرا صحيحا . .

هذه اللغة . . فتحت صدرها لتراث الإنسانية الخالد ، ومعارف البشرية الرائعة . . كما اتسعت لمقومات الأمة الإسلامية ، التى شرقت بالحضارة وغربت . .

برزت إلى الوجود قوية ، تتمتع بقوة لغة بالغة أشدها . . ومابدت إلالتكون لسان الدولة الإسلامية فى ظلال القرآن الكريم . .

قالت الكاتبة مى : إن الذى كان باعثا على قيام الحضارة العربية الإسلامية . . هو الذى مازال حافظها إلى اليوم . . وهو القرآن الكريم . لقد كان الإسلام . . يرمى إلى التوحيد ، سواء فى الدين والسياسة واللغة .

لذا ستظل اللغة العربية حية ، مادام الإسلام حيا . . فمن ذا الذى لايعرف للقرآن فضله فى بقاء اللغة العربية حية ؟

ومن ذا الذى لايعترف بما أدته هذه اللغة من خدمة للإنسانية ؟ وبأنها كانت الصلة الوحيدة بين حضارات العالم ، وحضارات اليوم . إنها الرابطة النفسية التى تربط بين المسلمين ، والصيغة الجميلة التى نودعها مكنونات العقول ، والقلوب . .

هذه اللغة وسعت مبادىء ومثل عليا ، لم تضق بها ، ولم تتخل عن احتمال أعبائها . .

بل فى ظل دولة الإسلام . . مرنت ، وامتصت ، وتفاعلت ،

ونمت نماءها الطبيعى ، المتطور من داخلها . . وهضمت خلاياها القوية ، كل ماقدم لها من خارج محيطها ، حتى تعمقت واتسعت آفاقها . .

هذه اللغة دعمها القرآن . إذ أخذت تفرض سلطانها فى بيئات جديدة ، فى أقطار الأرض . ولاشك . . أن القرآن الكريم . . هو الذى جعل لها كل هذه القوة . . فاشتملت على العالم الحسى والعقلى . . مصورا فى كلمات ، وآيات ، وجوزيت على هذا خلودا ، ماخلد للإنسان عقل وقلب ، وماستقام له إدراك وإحساس . .

خاطب بها رسول الله ﷺ المسلمين والوفود . . فكانت بهذا لغة المسلمين أبد الدهر . . واعتزاز المسلمين بالعربية . . اعتزاز بالعقيدة الإسلامية . .

من معانى الهجرة

معانى الهجرة كثيرة ، وكلها دلالة على قوة الإرادة ، والرحلة فى طلب العلم هجرة . . لأن الإنسان إذا جلس فى بيته قد لايتيسر له ، اكتساب الفوائد ، والكمال ، ومباشرة التلقين ، والمحاكاة ويقول ابن خلدون :

« إن الرحلة فى طلب العلم ، لابد أن تكون إلى الأمصار المستبحرة ، شأن الصنائع كلها »[1] . . ولهذا أولع كثير من المسلمين بالرحلة من بلد إلى بلد ، ابتغاء طلب العلم وتحصيله ، وحرصا منهم على اقتناص شوارده . . ومعرفة كل مايتصل بأئمته ورجاله » . .

فجابوا البلاد طولا وعرضا ، وشمالا وجنوبا ، وقطعوا الصحارى والقفار ، وتحملوا فى ذلك وعثاء السفر ، ومشقات الرحيل . . ولم يثن عزمهم شظف من العيش ، أوقلة من المال . .

يقول أبو الدرداء : « لو أعيتنى آية من كتاب الله فلم أجد أحدا يفتحها على إلارجل ببرك الغماد لرحلت إليه » . . وبرك الغماد موضع بأقصى اليمن كان يضرب به المثل فى البعد . .

(١) مقدمة ابن خلدون .

ويقول الشعبى أيضا : « لوأن رجلا سافر من الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ، مارأيت أن سفره ضاع » . .

وهذا يدل على حرص المسلمين على العلم والمعرفة ، والتحقق منه . .

وعلماء اللغة كانوا يرحلون إلى البادية ، ليأخذوا عن أعرابها . . اللغة ، والأدب . . من منا بعها الأصيلة ، البعيدة عن الإختلاط والعجمة . .

ورجال الحديث . . كانوا يرحلون إلى الأمصار المختلفة فى جميع البلاد الإسلامية . . حتى يقيدوا الأحاديث بأسانيدها ورواياتها . .

وهؤلاء المحدثون . . كانوا من أنشط الناس للهجرة ، وأكثرهم تحملاً للمشاق . .

وكذلك فعل رجال الأدب . . فهاجروا فى سبيل فنهم ومطالبهم . . وجمعوا الأدب العربى من مصادره . .

«ومن الأمثلة التى تذكر لرحلات العلم فى هذا الباب ، وهى قليل من كثير ، رحلات الخليل ابن أحمد ، والكسائى ، والأصمعى ، وأبوعمرو بن العلاء ، وأبوزيد الأنصارى ، وهم من اللغويين ، فقد كانوا يرحلون إلى البوادى ، ويسمعون اللغة ، والأدب ، من الأعراب ، ثم يدونون مايسمعونه وهذا الإمام البخارى فى مطلبه للحديث ، يضرب آباط الإبل ، ويتحمل وعثاء الرحيل ، ويتقلب فى

البلاد ، بين خراسان والجبل ، وأمصار العراق ، وبين الحجاز والشام ومصر .

ومسلم صاحب الصحيح ، لايقل عن صاحبه البخارى ، ولايقصر عن شأوه ، فى احتمال مشقات السفر ، بين نيسابور ، والحجاز ، والشام ، ومصر . . استقصاء لمايروى من الأحاديث ، وتلقيا لها من أفواه المحدثين الثقاة . .

وقد بلغ من شدة حرص المحدثين ، على تلقى الأحاديث ، أنهم كانوا يعملون المطايا ، ويتحملون مشقات السفر ، ووعثاء الطريق ، فى سبيل الحصول ، حتى على حديث واحد فقط ، من أحاديث النبى ﷺ . . فهذا جابر بن عبد الله ، يشترى راحلة ، فيشد عليها رحاله ، ويغذ بها السير شهرا كاملا ، حتى يقدم الشام ، للوقوف على حديث بلغه عن رجل من الصحابة ، كان مقيما بالشام . .

وهذا بسر بن عبد الله الحضرمى . . يقول : إنى كنت لأركب إلى المصر من الأمصار ، فى الحديث الواحد لأسمعه . .

وجاء فى جامع بيان العلم . أن مسروقا المحدث ، كان يرحل فى طلب حرف واحد . . وأن أبا سعيد كان كذلك يرحل فى حرف واحد . .

وكذلك يروى يافوت : أن أبازيد أحمد بن سهل البلخى . . سافر من بلخ إلى أرض العراق ، وبقى بها ثمانى سنين ، يتلقى العلم على أعلامها ، وطوف بالبلاد المتاخمة لها ، وحصل علوما جمة ، وبحث

عن أصول الدين ، وتعمق فى الفلسفة ، وتخرج فيها على أبى يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى ، كما برز فى علوم الطب ، والتنجيم ، والهيئة ، والطبائع . .

وغير ذلك من الأمثلة والشواهد التى تدل على جهاد هؤلاء العلماء الأعلام ، وارتحالهم فى سبيل العلم ، مع صعوبة الأسفار ، وبعد المسافات »[1] . .

ويقول الكاتب الإسلامى أحمد أمين فى ذلك . . « ترى العالم فى المشرق . . فإذا هو فى الأندلس ، وفيما هو فى الأندلس ، إذا هو فى العراق ، وفيما هو فى العراق ، إذا هو بمصر والشام ، لايعوقهم فقر ، ولايفت فى عزمهم صعوبة الطريق ، وأخطاره ، سواء عليهم الصحراء وحرها ، والبحار وأمواجها ، إذ تغلغل فى نفوسهم اعتقادا . . أن طلب العلم جهاد ، فمن مات فى سبيله ، مات شهيدا ، هذا إلى أن العلم عند كثير منهم أصبح مقصدا لاوسيلة ، يقصد لذاته ، سواء أنتج فقراً أوغنى ، وحياة أوموتا » . .

ومن معانى الهجرة . . ماجاء عن جابر بن عبدالله ، قال : أتى النبى ﷺ ، رجل فقال : يارسول الله أى الهجرة أفضل ؟

قال : من هجر ماكره الله عز وجل[2] . .

---

(١) تنظر : (أطوار الثقافة والفكر فى ظلال العروبة والإسلام) للأستاذ على الجندى وآخرين الجزء الثانى ص ١٩٥ ، ١٩٧ بتصرف مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٠ . .

(٢) رياض الصالحين . ص ٢٩٥ . .

وماجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . . والمهاجر من هجر مانهى الله عنه . . . » [1] . .

ومن ذلك أيضا ماروى عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، قال : سمعت النبى ﷺ ، يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ماهاجر اليه » [2] . .

وقال ﷺ : « إن الهجرة خصيلتان : إحداهما أن تهجر السيئات ، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله ، ولاتنقطع الهجرة ، ماتقبلت التوبة » [3] . .

وهجرة النبى ﷺ وأصحابه . . توحى إلى المسلمين . . فى كل وقت . . بأسمى الدروس النافعة ، وأعظم العبر . .

فهى ولاشك . . مثل رائع للثبات ، والصبر ، وقوة الإيمان . . كما أنها تنبىء عن إرادة قوية ، وفاعلية قادرة . . وعمل منظم ، وتخطيط سليم . .

---

(١) رياض الصالحين . ص ٥٧٣ .

(٢) رياض الصالحين . ص ١٢ والحديث متفق عليه . .

(٣) رياض الصالحين ص ٢٦٥ . .

وفى الهجرة تجلت معانى الأخوة ، والإيثار ، والتعاون ، والحب والتوادد ، والتآزر . .

كما أن فيها من نماذج البطولة ، والفدائية ، مايعد أبد الدهر من علائم الكمال . .

والدروس المستفادة من الهجرة . . لاتنقطع ولاينضب لها معين . .

والهجرة . . نقطة تحول فى بناء دولة الإسلام الأولى. ولنا أن نبنى أمة الإسلام . . على الأسس التى أسس بها رسول الله ﷺ . . البناء . .

الفهرس